

فتح العلام في تفسير آيات الصيام

دراسة شرعية بلاغية تحليلية

الشيخ

محمد السيد حسن محمد

دار مشكاة
للطبع والنشر والتوزيع



عنوان الكتاب: فتح العلام في تفسير آيات الصيام

المؤلف: محمد السيد حسن محمد

التصنيف: دراسة قرآنية

تنسيق: منى الغريب

مراجعة: بمعرفة المؤلف

تصميم غلاف: شركة دوام

رقم الإيداع: ٢٠٢٤/١١٤١١

ترقيم دولي: ٠-٠٦-٨٨٢٥-٩٧٧-٩٧٨

=====

٣٤ شارع يحيى إبراهيم - محمد مظهر - الزمالك - القاهرة
ت/ ٠١١١٤٣٩٨٩٩٤ - ٠١٠١٤٤٤٤٦٤٨ - ٠١٠٠٢٢٦٩٥٤٧

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

هذا العمل وقف لله تعالى

ومن أراد طباعته ونشره مجاناً فله ذلك بعد إذن خطي من المؤلف

للتواصل مع الكاتب haledsayed398@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المشرف العام لمؤسسة السادة للفكر والثقافة

الحمد لله رب العالمين،، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين،،، وبعد،،
لما كان للعلوم الشرعية المنضبطة الأهمية الكبرى في حياة كل مسلم، وصار العلم الشرعي والحاجة إليه من أساسيات الحياة، وخاصة في هذا الزمان الذي انتشرت فيه الفتن، والشبهات والمشككين في ثوابت الدين من هنا وهناك، وحيث انتشر الجهل والبعد عن طلب العلم والتفقه في دين الله تعالى، فكانت الحاجة للعلوم الشرعية ونشرها كالشمس للدنيا والصحة للأبدان.

ومن أجل هذا حملت على عاتقي تأسيس هذه المؤسسة العلمية وبمساعدة طيبة من بعض الإخوة المخلصين، والهدف منها نشر العلم الشرعي الصحيح المنضبط المعتدل على منهج أهل السنة والجماعة، حتى نقدم لأبناء الأمة الإسلامية مساهمة طيبة، ولو كانت بسيطة، عدة لهم وتحصينا أمام الشبهات والفتن بجميع أشكالها. ولقد تعمدا السهولة واليسر، حتى تكون متاحة لعموم المسلمين ولمحبي دراسة العلوم الشرعية، والتفقه في الدين.

و انطلاقا من حديث رسول الله ﷺ عن سيدنا معاوية بن أبي سفيان ؓ، قال رسول الله: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ". (صحيح البخاري) وحديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله! أي الناس أحب إلى الله؟ فقال: أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل، سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة، أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد، يعني مسجد المدينة شهراً...". (رواه الطبراني في الأوسط والصغير)

ونسأله تعالى بجميل فضله وكرمه أن يجعله عملاً صالحاً ولوجهه خالصاً، وأن يكون زخراً لنا ولكل مسلم، ونورا علي الصراط، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولعموم المسلمين... اللهم آمين يارب العالمين،،،

المشرف العام :

ناصر بن صالح بن حسين السادة

التعريف بالمؤسسة

مؤسسة دعوية لا علاقة لها بالسياسة منهجها الدعوة إلى الإسلام بعقيدة ومنهج سلف الأمة.
جعلنا القرآن الكريم والسنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ طريقا وسبيلا ومنهجاً.
دعوتنا للناس بالحكمة والموعظة الحسنة واللين والرفق وعدم العنف بكل أشكاله واتباع أيسر الطرق للوصول إلى ذلك،
نبتغي من وراء ذلك وجه الله تعالى.
(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام)
شعارنا قول الله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)
متبعين قول رسولنا الأكرم (بلغوا عني ولو آية)
نريد العودة إلى الإسلام الصحيح والخير لجميع الدنيا فالمؤمن كالغيث أينما حل نفع.
اللهم اجعل بلادنا آمنة مطمئنة رخاءً وسائر بلاد المسلمين. تقبل الله منا ومنكم .

أهداف المؤسسة

- نشر العلم الشرعي بسهولة ويسر.
- طبع الأبحاث العلمية النافعة.
- ترجمة الكتب والأبحاث إلى لغات أجنبية.
- طباعة رسائل الماجستير والدكتوراة لغير القادرين علي طباعتها.
- نشر الإسلام الصحيح في بلاد غير عربية.
- الاهتمام بالجيل الصغير وتشجيعه علي الإنجاز وكتابة الأبحاث.
- الدعوة إلي الله تعالي بالحكمة والموعظة الحسنة.
- تربية جيل من الدعاة والمخلصين لنشر الإسلام الصحيح.
- التصدي لحملات المشككين وناكري السنة النبوية.
- إعداد ندوات علمية نافعة.
- إنشاء مدارس للقرآن والسنة النبوية المباركة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث:

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره. أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حقا وصدقا ويقينا.

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين

وبعد:

فإن هذه لمسات من فيض هذا القرآن المجيد، ألفتني إليها مقودا، ووجدتني عليها عاكفا.

ولما كان الشأن من تفسير آيات الصيام، ولما لم أجد نفرا قد انتصب لها، ومن كمثل ما قدمته، وإنما لم يكن، ومن باب كمثل الذي ولجته، وإنما ولم يكن، ومن سبيل كالذي سلكته. تحليلا، بلاغيا، شرعيا، رأيته.

وذلك أن هذا القرآن الحكيم، ولما كان قد تنزل، ومن لغة عربية، وكان منه لزاما أن يشير إلى علوم العربية، وبالأخص منها علوم البلاغة؛ ولأن هذه العلوم البلاغية، هي التي تفرد بها هذا القرآن، وعما سواه، ولا سيما أنه كان قد تنزل معجزا، لأولاء العرب الذين قد تنزل، ومن بينهم ويوم أن تنزل.

ومنه فقد رأيت كشفا لهذا الجانب عظيمًا، يبرهن على كم كان أداء هذا القرآن الكريم، ومن بلاغته، ومن إعجازه الضارب في باب البلاغة هذا.

المنهج التحليلي

ولكنني سلكت طريقًا موازيا، وحين قمت بتحليل الآية، تحليلًا كشف عنها، ومن نورها وبهائها، حتى ألفت نفسي، ومن بين حقائق غناء، ومن عطاء هذا القرآن .

وهذا السبيل التحليلي، وقد رأيتني أيضًا، وليس ومن كمثل ما شرفت به، وعلى هذا النحو ومن أحد طرق طريقنا.

ومنه جاء هذا السفر القصير حدًا، والغزير عطاء، ومن جدة في بابها، وإذ لم يسبق إلى هذا البيان سابق، وعلى حد علمنا.

وبكأن أفذاذا قد قالوا، وأن أمجادا قد أجادوا.

ولكنه يتبقى أن عملنا هذا قد اشتمل على ما يجعله، ومن مصاف الأعمال الجديدة، ومن بابها.

ومنه فتلكم من حلقات متصلة، ومن سلسلة ملتئمة، يكمل بعضها بعضًا، ويشد أزرها أختها، ومن معين القرآن كما جمعنا كلنا.

عملنا في هذا البحث

١- الوقوف بالمفردة على مراد القرآن الكريم ومن القرآن نفسه.

٢- الوقوف بالمفردة على مراد النبي محمد صلى الله عليه وسلم
ومن الحديث الوارد في هذا.

٣- تتبع أقوال الصحابة وفيما يختص بالمفردة.

٤- الوقوف بالمفردة وعلى مقتضيات اللغة العربية الواردة
شأنها.

٥- تتبع أقوال أهل العلم بكلام الله تعالى.

٦- الوقوف على المعنى الإجمالي لمفهوم النظم القرآني. ومن
خلال كل ما أنف.

٧- الاهتمام بإبراز الجانب الفقهي والحكم الشرعي المتعلق
بالآية محل التفسير ولينضاف إلى مطلع ميزت التفسير والإحاطة
بالحكم الشرعي الذي قد أولته الآية اهتمامها.

خطة البحث

قسمت هذا البحث إلى خمسة فصول، ومخصصا لكل آية فصلا
مستقلا.

وكذا كل فصل إلى عدة مباحث.

المؤلف

البريد الإلكتروني

haledsayed398@gmail.com

الفصل الأول

تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا
كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول : حكمة الصيام

هذه هي الآية الثالثة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، ونستأنف الكلام حولها، ونحن إذ نتضلع غذاء لأرواحنا ونفوسنا وقلوبنا، وحين نستجيش هذا الانفساح مع هذا الكتاب العظيم القرآن المجيد.

وحيث كان فيه هدايا ومنه سلوانا ورضانا وسنانا ونورنا وضيائنا أيضا.

ومنه هو ذلكم الصيام الذي امتن به رب العزة والجلال علينا- معاشر البشر- تعبدا لربنا الرحمن أولا.

وحيث قد لبينا نداءه وأمره سبحانه وتعالى.

وهذا هو اختبار مدى عبودية النفس لخالقها وبارئها ربنا الرحمن تبارك وتعالى.

ثم إن الله تبارك وتعالى لم يأمر أمرا وإلا وفيه خيرنا وصلاحنا وسعادتنا ويسرنا وسهولتنا وفوزنا وفرحنا وصلاحنا أبدا.

وإذ لم ينه ربنا تبارك وتعالى نحن معاشر البشر المساكين نهيا وإلا
وكان فيه نفعنا وترياقنا وعلاجنا ووقاؤنا أيضا.

ومنه نتوجه لربنا سبحانه وتعالى حامدين منزهين مسبحين مكبرين
مهللين؛ وأن أمر وأن نهى أيضا.

إن ربنا تبارك وتعالى ولم يترك هذه النفوس لذواتها ولربما ضلت
عقالها وقد خابت في هكذا تجوال يمنية أو يسرة.

وحين تخطئ مرات أو تصيب مرة واحدة؛ فوضعها ربنا الرحمن
تبارك وتعالى على هكذا طريق مستقيم ليس به عوج- ولو واحدا- لنحمد
ونكبر ونهلل ونسبح ونستغفر ونقنت ونخبت ونشكر.

راحة الأبدان: وهذا الصيام، وكما أنف، وإضافة إلى أنه من أمر ربنا
واختبارا لمدى عبوديتنا لإلهنا وخالقنا ورازقنا، وإلا أنه كان غدق الفائدة
علينا، وحين قالوا إن الجسد بحاجة إلى أن تستراح معدته، ولو وقتا!

فإن هذه المعدة مسكينة معنا أيما مسكنة، وأعانها ربنا سبحانه
وتعالى علينا، وحين نطعمها ونسقيها آناء الليل وأطراف النهار. فكان من
حقها أن تسترويح زمنا من الدهر! فجاء هذا الأمر الرباني الجليل؛ ليريح
معدتنا، وبطننا، وأمعانا.

ثم إن هذا الذي قالوا عنه إن الجسد وجهازه الهضمي كله بحاجة إلى
نقاها فترة من الزمن.

وقد أجمع عقلاء وحكماء صحة الأبدان على هكذا معنى.

وأما نحن معاشر المسلمين فنضيف إلى ذلكم الأمرين: وأنه تعبد لله، وأنه استترواح للجهاز الهضمي، من بعد نصب وتعبد طيلة ربما عام كامل! فلننتق الله فيه!

وحيث أرحناه ولو شيئاً شهراً واحداً كل عام مرة!
سمو خلق: وأضيف أن هذا الصيام فيه استكانة لأرواحنا وإرضاء وزكاء لأخلاقنا وأمزجتنا.

والواقع شاهد بذلك قطعاً للنظر عن هذه الأدلة كلها.
دوران أمر ديننا على المصلحة: وهذا ليس بعداً عن الدليل وحاشاي، وإنما ومن باب المصلحة، فإن الله عز وجل وحيث أمر بهذا الصوم كان لغاية، وهي تصحيح أمزجتنا وقلوبنا واستترواح نفوسنا وشعورها بهكذا رضا وسكينة وطمأنينة وأمن.

قمة من همة: وحيث أيضاً يتغلب العبد أو الفرد أو المرء على ما قد تعود وعود جهازه الهضمي عليه، فذلكم أيضاً فيه ارتقاء وعلو هامة وقامة على رغائب النفس.

عونه تعالى: وحيث أمكن للعبد أن يقطع نفسه هذه، ويكأنه وحيث يربط هذا بعبوديته لربه ومولاه الملك الحق المبين؛ وليعلم أن ربه معينه.

من موجبات عظمة ربنا تعالى: وهذه حيثية عظيمة في أدائنا لجميع مناسكنا وعباداتنا، وحيث نستلهم التوفيق والرشد والعون والإلهام والسداد من ربنا تبارك وتعالى في علاه.

وأنت وحين تدلف بقدمي العبودية إلى ربك الرحمن تبارك وتعالى،
لتشكره شكرا، ولتحمده حمدا، ولتكبره تكبرا، ولتهلله تهليلا،
ولتقدسه تقديسا، ولتنزهه تنزيها.

وحين قد ناداك هذا النداء الذي فيه معاني اللطف والحنو والرضا في
علاه.

حين تستحضر هذا المعنى يستريح بالك وتطمئن نفسك

وأنت إذ تنادي ولدك: يا علي: يا فاطمة مثلا، لبيك، يشعر الولد أو
البنات، وحين ينادى بهكذا لطف وعذب نداء!

ولله المثل الأعلى وحين يلطف بك ربك ويقدرك ويعطيك قيمتك
ويمنحك سعدك وفوزك؛ ومن هذا النداء وحسب، فإن ربا خلق ينادي عبدا
خُلِقَ!

إن هذه حيثية وحين يقف عليها العبد يخبت القلب لربه إقباتا،
ويقنت الجسد كله لخالقه قنوتا. وحين يستحضر أن ربا ينادي عبدا بهذه
الإضافة الربانية المليحة الجميلة.

وحين يناديك ربك سبحانه ربنا وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

سر اختيار النداء

١- إن اختيار حرف النداء أصالة فيه حكمة وبلاغة؛ ولأن في النداء استجاشه لما في الصدور واستدعاء أن تنتهياً لتلقي ما بعده، وهذه واحدة.

٢- وواحدة منضافة أخرى، وحين يخلى هذا السياق القرآني ها هنا أو في غيرها هنا عن أداة النداء؛ لينزل عليك الأمر إنزالاً، لتشعرن بشيء من الاضطراب وجلجلة الصدور.

فحاشاك ربك عن هذا وخلاك. وحين قد ناداك!

إن هذا استدعاء لطبوبة النفوس وهددتها وإرضائها وتوطئتها؛ لتلقي ما سوف يأتي بعد ذلكم النداء!

أرأيت كيف كانت بلاغة قرآن ربك الرحمن وعظمته وسحره وبيانه وجماله وجلاله؟!

إن هذا الأمر يفيد العاملين في مجال التنمية البشرية ورؤساء المنظمات، وحين يقدمون بين يدي أمرهم نداء حنياً رضى فيه معنى العطف ومعنى الرحمة ومعاني الألفة.

وحينها سوف ترى كيف كانت مجابة بل مسارعة ومسابقة إلى تنفيذ أمرها الذي قد أمرت به.

ولما قدم بين يديه نداء لا أمراً.

وأداه النداء وحدها كفيلة ببيان وبلاغ آخر.

ذلك أن أدوات النداء ثلاثة أنواع منها ما كان للقريب وحسب ك:
الهمزة وأي، ومنها ما كان للبعيد وحسب ك: أيا وهيا، ومنها ما كان جمعا
بين القريب والبعيد معه وهي هذه الياء.
إن هذا له بيان آخر وبلاغة أخرى.

وحين يجاء بأداة النداء القائمة مقام البعد والقرب أيضا، ليشمل
النداء كل نفس مسلمة في مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها!
بعدت أم قربت!

وذلكم فيه استهلال لقرب العبيد من ربهم من الرحمن تبارك وتعالى.
وكما أن فيه استهلالا واستشرافا واستشرقا لقرب ربنا الرحمن منا
معاشر العبيد.

وكيما نأنس بهذا القرب منه ربا رحيمًا، كان لطيفا بنا خبيرًا رؤوفا.

المبحث الثاني: إختصاص الله تعالى ببيان أحكام الصيام

والواقع أنها هي هذه آية الصوم، وبهذا السبب والموجب تكون علما على الصيام.

وكما أن الصيام أيضا يكون علما عليها.

وهذا من تدبير ربنا الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى في علاه، وحين أعلى من شأن هذه الفريضة.

وحين تولى ربنا الرحمن عز وجل سبحانه وتعالى في علاه بنفسه الكريمة بيانا لهذه الفريضة على عباده المؤمنين فرضا وكسبا من تنزيل حكيم مجيد، يحتويه هذا القرآن العظيم أيضا.

ودلالة اهتمام القرآن العظيم بهذه الفريضة الكريمة الشأن.

وإذ كيف لا وهذه الفريضة أي الصوم يعتبر ركنا من أركان ديننا الإسلام الحنيف الخالد؟!

ولما قد تكفل ربنا الرحمن عز وجل بيانه وإظهاره لنا معاشر البشر المساكين؛ وكما نكون على علم من أمر ربنا تعالى، وهذه واحدة.

وما اجمل علما نستقيه عن ربنا ومن خالقنا تبارك!

وأما الثانية: فذلكم هو فيما لا يمكنها تصويره أو إدراكه تماما، وهذا هو الشأن في جميع فرائض الإسلام من أوله وهو شهادة ألا إله الا الله وأن محمدا رسول الله.

فاستقامتا مسألتا الأمر والنهي اللذان عليهما مدار هذه الشهادة، وإذا
ليس يكون إلا عن رب العزة والجلال وكذا نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه
وسلم.

وهو منهجنا أن نكشف هذا وأن نبينه وأن نوضحه وأن نذكره أبدا.
برهان أن لا يدن أحدنا فيما ليس يدركه، بل قد أصابه العوار بعضه
أو كله، وحين ينتصب فرد كان أو مؤسسة كانت أو جامعة كانت أو هيئة
كانت!

فليس لأحد من مكنته أن يتصدر لمسألتي الأمر والنهي.

وحيثما وجد أمر مغاير أو نهي مخالف لما وجد في هذا القرآن العظيم
الذكر المبين، وكذا عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، هذا النبي
العربي الأمي القرشي الصادق الأمين عليه صلوات ربي وسلامه إلى أن يقوم
الناس لرب العالمين.

ومنه فقد كانت أيضا هذه أحكام متنزلة على كل فريضة من فرائض
وأركان هذا الدين الاسلامي الخالد.

ومنه هذا الصوم الذي نحن بين يديه.

وحيث ذكرت أداة النداء (يا)، ومما أنف بعض من بيانه، ونزيده
إيضاحا وتبيانا؛ ولأن أساليب القرآن العظيم ذات الشأن والقيمة في بلاغتها
وحسنها ولفظها وبيانها.

وحين استدراكها وتأملها واستذكارها لتأخذ بلب أحدنا أخذاً،
ولينطرحن بينها انطراحاً، مستسيغاً مستروحاً مستريحاً،
وحين يعمل بين جنبات هذا الذكر الحكيم متقلبا في تدبره وتفكره وافتراضه واعتباره.
وليملأن قلبه وجوفه وصدره من هكذا بلاغة لهذا الذكر الحكيم،
فيتضلع به.

فحين ذكرت أداء النداء ها هنا، وما وجه البلاغة في أداء النداء من أصل؟ وما وجه مجيئها محذوفة في مواطن آخر من هذا الكتاب المجيد القرآن الكريم العظيم؟!

يقولون إن أداة النداء وإذ تشي بذلكم التنبيه، ويكأن ربنا الرحمن عز وجل حين ينادي عباده سبحانه وتعالى في علاه، يرسل شاره تنبيه لتلقي ما بعدها، وهذه واحدة.

والثانية: وإن في هذا توطئة للعبيد، وحين يتلقون عن ربهم الرحمن عز وجل أمراً أو نهياً وإنما تستمر رائحة التلطف والشفقة من هذا الرب العظيم تبارك وتعالى لعبيده! ومما أنف بيانه أيضاً.

وهذا الذي أيضاً نشتم زكاه وعليه ونسيمه من اهتمام الرب العظيم لعبيده، وحين يناديهم.

إن هذا استهلال وبما يحمل من آيات الشفقة والرحمة من هذا العظيم المهيمن سبحانه وتعالى. وحين خيم على النص هذا التخيم، وهذا الظل الوارث النسيم العليل؛ يجعلك في بحبوة، وفي ساحة من الراحة والاطمئنان

والأمن والدعة إلى أن ربك الرحمن، وحين يناديك وإنما يناديك لأمر عظيم ملفوف بهكذا ثوب من الرحمة والشفقة والاهتمام.

وهذه التقديمة العظيمة التي يشي بها حرف النداء (يا)، ومنه كان السر في بيانه وذكره وإثرائه أيضا.

وتعلم ذلك أكثر العلم وحين تطلع على آيات النداء في القرآن العظيم ذي الشأن.

ويكأنها منحصرة ومحصوره حصرا في: إما ذكر أداه النداء وإما حذف أداه النداء.

والأصل هو ذكرها، وهذه واحدة.

والجواز هو حذفها وهذه ثانية. لكن هذه هي أداة النداء الأوحى في القرآن العظيم كله، وفقط (يا)! ومن جملة خمس أدوات للنداء سبق ذكرها أنفا. وفيما جاء القرآن بذكرها وحسب.

وهذا الذي جعل أهل البلاغة والبيان وتفصيل وتأويل وتفسير كلام رب العزة والجلال.

فدل على تفرد أداه النداء بميزة وإلا ما جاء القرآن بذكرها!

وأكرر: فإن هذا الذي جعل أهل البلاغة والبيان وتفصيل وتأويل وتفسير كلام رب العزة والجلال، وحين تكلموا عن أداه النداء، وحين ذكرت، ولما حذفتم!

قالوا: حذفت أداه النداء يا، ولم يذكروا ولم يبالوا بأدوات النداء الآخر؛
ولعل سرا مما قالوه جلي المظهر حلو المعنى!

ذلك أنهم قالوا ياء فيها من السهولة وليسر نطقا وأيسر وأسهل من
أدوات النداء الآخر!

ولأنها أدوات حلقية، فيها شيء من الثقل قياسا على هذه أداه النداء يا!
فالهزمة مثلا وأيا وهيا كلها أدوات حلقية فيها نوع ثقل غير يا!
فجاء هذا التسهيل وهذا اليسر سببا من أسباب اكتفاء القرآن العظيم
بذكر أداه النداء يا.

ومنه هذا الذي نحن بين يديه الآن ومن قول ربنا الرحمن تبارك وتعالى
وعز جاهه وعظم سلطانه ذكرا أداة النداء ياء دون غيرها!
وهذه غيض من فيض ومن توطئات ذكر أداة النداء.
إنك تشتم منها ذكاء الأمر وعبقه ويكأنها تحمل بين جنباتها أمرا بحد
ذاتها.

ولكنه ليس يذكر الأمر رحمة من ربك الرحمن بك وشفقة عليك
وتقدима بصورة الأمر بهكذا صورة زكية ندية رضية لطيفة؛ فتقبل النفوس
على وإلى هذا الأمر به راضية مرضية!

وحين لم يلف الأمر بصيغته (افعل)!

ثم إن هذا الأمر هكذا فيه نوع تودد! وفيه نوع إلزام معا!

فتقدم بهذا الأمر بأداه نداء شفقة وتوطئة وتمهيدا للنفوس أن تتقبل
أمر ربها عن محبة واختيار جميلين أيضا.

وانظر إلى هذه البلاغة في ذكر ربك الرحمن؛ وكيفا نتعلم كيف يكون
أسلوب الحديث والبيان وحين ناداك!

وحين قال سبحانه ربي في علاه يوما ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا
عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ
إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

بهكذا توطئة تأخذ اللب أخذا رافة ورحمة من ربنا الرحمن.

ثم يأتي بعدها الأمر الجازم (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له)!

هذه هي حلاوة وسر بلاغة قرآننا.

ومنه ذكرت أداه النداء وبما حوت من شفقة ومن لطف ومن تنبيه
أيضا.

فإن من من معاني هذه الأداء هو ذلكم التنبيه الرباني بهذا الأداء
البلاغي.

ولما سوف يأتي بعدها من أمر توطئة له، وممهدها لها.

المبحث الثالث: أهمية الصيام

وحين كان من شأن هذا الصوم وكما قال رب العزة والجلال رافعا من شأنه وقيمته وأهميته: قول الله تعالى: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام؛ فإنه لي، وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يفرث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه^(١).

إن التفرد في هذا المعنى يشي بأهميته هو هذا الصوم.

وحين يكون العبد متقلبا في نفحات إخلاصه وانقطاعه إلى ربه ومولاه تبارك وتعالى الحق المبين. وحين ترك وكما قال الحديث القدسي العظيم عن رب العزة والجلال تبارك وتعالى وعز اسمه: ترك الأكل والشرب وسائر الملذات بالطبع لله تبارك وتعالى.

ولذا تفرد رب العزة والجلال بذكر هذا الصوم هكذا إلا الصوم فإنه لي استشرافا لمعنى عظيم جدا، وهو ذلك الانطباع القلبي وحين علم ربنا الرحمن عز وجل أن المفترضات العابدين وأنهم ليسوا يصومون إلا لربهم الحق تبارك وتعالى في علاه.

ومنه فإنه كان قمنا أن نسمي هكذا الآية هذه آية الإخلاص وعلامته وفصله وأصله وفرعه.

(١) صحيح البخاري: ١٩٠٤

وحين يجيء رب العزه والجلال ويقول هذا القول بذاته المقدسة المنزهة العظيمة الجليلة القديرة، فإننا نؤكد على هكذا رفعة لشأن هذا الصوم؛ من دلالة هذا الحديث القدسي، ومن دلالته به هو هذه الآيه الثالثة والثمانون بعد المائة من سوره البقرة، وحين قد أسميت ومما أنف آية الصوم.

وهو الذي نفيده أيضا من حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء^(١).

أي: فطم، أي قوة على ردع هذه الشهوات الفطرية الطبيعية الجبلية التي أودعها الله تبارك وتعالى خلقه.

ودلك على ذلك وكيف ذكر اسم الصوم دون غيره من عبادات في هذا الحديث النبوي الكريم العظيم؛ برهان قيمة هكذا الصوم، وبرهان عظم أجره، وبرهان رفعته، وارتفاع فوق شهوات النفوس.

ونريد أن نقف وقفة أخرى عند هذا النداء أيضا، وحين ذكرنا أنه ذكرت أداة النداء، ودون غيرها من أدوات النداء الأخرى!

وإن قال أهل اللغة إنه يجوز حذف أداة النداء، فإن للذكر بلاغة، وأن للحذف بلاغة.

(١) صحيح البخاري: ٥٠٦٥

وسبق بيان ذلك في علة وبلاغة ذكر أداة النداء (يا)، وأما لِمَ لَمْ تحذف مع جواز ذلك لغة؟ وكما قال رب العزة والجلال ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

تقدير الكلام: يا يوسف في الآية الكريمة سألقة الذكر، فهنا حذف، وله طلاوة ولما لم تحذف في آية الصوم.

وحلاوة عدم الذكر ها هنا هو ذلكم استشراف المعنى الواسع الضخم الكبير العظيم الشأن، من تطويل الكلام من رب العزة والأنام إلى أولاء الخلق المخاطبين!

ويكأن الله تبارك وتعالى يشعرهم برضاه، وحين قد كان منه تطويلا للكلام معهم.

وهذا شرف تتسم به هذه النفوس.

وحين علت بإيمانها؛ ومن موجب ذلكم الوصف اللصيق بهم، ومن قول ربهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾.

ومنه كان عامل الحذف ها هنا أدنى في المرتبة من عامل ذكر أداة النداء.

ويحسن الوقوف على هذا الشأن أيضا.

قالوا أهل اللغة وفنها: إذا كان المنادى معرفا، فإنه يسبق ب (أيها).

ونحن نريد أن نقف على هذه الوقفات اللغوية ونلبسها أول ما نلبسها
ثوبها البلاغي؛ لتبدو هكذا حله بهية من أمام أعيننا فتعمل عملها في قلوبنا،
وإزكاء نفوسنا.

سبق ذكر أن أداة النداء (ياء) وحدها فيها من علامات التنبيه
وإشراقاته ما دلت عليه كأداة نداء مستقلة.

وأن يضاف إليها (أيها) بهكذا هاء التنبيه، ويكأن التنبيه صار
مركبا؛ ولعظم شأن المخاطب عند ربه تعالى.

ويكأن لك قيمة عند مولاك؛ وحين قد كان بهذا الخطاب حباك وأولاك.
وهذه حيثية أخرى، حسن الوقوف عندها.

وكان يمكن أن يقول ربنا الرحمن (ياء مؤمنون)، أو (يا أيها
المؤمنون)، دون ذكر الاسم الموصول (الذين)، كما قال ربنا الرحمن عز
وجل ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:
٣١].

هذه سياقات وبلاغات هذا الذكر الحكيم القرآن المجيد العظيم.

فان ذكر اسم الموصول ها هنا إضافة تكريم وتعظيم وتشريف
منضافة إلى ذكر أداه النداء (يا). تعظيما وتفخيما لشأن المؤمنين
المخاطبين.

وهذه أيضا كلية حسنا الوقوف عندها.

وحين يأتي الاسم الموصول؛ دلالة تفخيم وتعظيم لمن هو أهل لهذا الخطاب، وهو جملة المخاطبين من أولاء الحنفاء الأتقياء الانقياء الأصفياء.

وحين قد علم ربهم الرحمن عنهم ومنهم ذلكم الإخلاص والهدى والتقوى.

ولما كانوا قد نعتوا بهذا الصوم ويكأنهم جديرون أن يخاطبوا به؛ ولأنهم أهل للقيام به ليس طاعة لمولاهم الحق المبين وحسب، بل ملفوفة بهذا الإخلاص وهذا التجرد لهذا الرب العظيم تبارك وتعالى في علاه.

وهذه رسالة نستشرف منها هذه البلاغة القرآنية أيضا في استدعاء ما لدى القوم من طبع فطري، ومن أداء جبلي، كانوا قد طبعوا عليه أصلا؛ ومن قول رب العزة والجلال تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۖ شَهِدْنَا ۚ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۖ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذه الشهادة المستقرة في القلوب والمطبوعة طبعًا على كل قلب مؤمن بربه عز وجل في علاه. نستدعيها ونستشرفها ونستلهمها ها هنا.

ومنه جاء النداء الرباني الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ إشاعة لهذا الإيمان وبما استقر في قلوب أذعيائه، عن صدق وإخلاص لربهم الرحمن عز وجل.

وانظر أيضا كيف كانت تفردهم بذكر الإيمان وعن غيره، وكقوله تعالى يا أيها الذين (أسلموا) مثلاً.

برهان أن المسألة مدارها على هذا التصديق القلبي والإذعان الجوارحي.

مما قد دل به نبض، أو لما قول ربنا تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ استصحاب الفصل الذي كنا قد جبلناكم عليه، وهو ما يشفراركم عليه أيضا، وبه تكونون عليه أيضا آناء الليل وأطراف النهار.

وهذا شحذ للهمم واستدعاء للطاقات، وتشجيع لأولي القمم والعزم من الناس، أن يكونوا عند نداء ربنا الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

المبحث الرابع: من دلالات الفعل المبني للمجهول

وما زال الكلام مستأنفا مستمرا سيلا مدرارا حول الإفادة من هذه الآية الثالثة والثمانين بعد المائة من سورة البقرة وما اصطلح على تسميتها بآية الصيام.

أسلوب الفصل وبلاغته: وإنك لتكاد تشعر ببلاغة أيما شعور وحين تستطلع هذه الآية بين يديك استطلاع متفكر متدبر معتبر بهذا القرآن العظيم وما فيه من درر وما قد حواه من زخر أنباك عنها هذا الفصل الذي قد تميزت به هذه الآية الكريمة العظيمة الشأن.

ويكأنك لا تلاحظ فيها عطفًا أبدا.

وهذه عمل اللحمة الواحدة!

ويكأنها كل ليس يتجزأ!

وإن حوت أجزاء كثيرة حكينا بعضها منها.

ولسوف أتحنك بالبعض الكثير أيضا.

هذا الالتحام الذي نتج عن هذا الفصل، والذي نتج عن عدم وجود حرف العطف الواو أو غيره، هو الذي جعلها، وكما قلت قطعة واحدة.

ويكأنك تستطلع منها، وتفيد منها، وإن تهذر عليك الخير كله وبعضه وجزأه أيضا.

ولما كانت من تنزيل حكيم مجيد هو ربنا الرحمن تبارك وتعالى في
علاه أو هكذا أنزله ربنا الرحمن عز وجل؛ لنتفكر ولنتدبر ولنتعظ ولنعتبر،
وكيف يكون البيان، وحين يجيء عن ربنا الرحمن الديان!

وحينها تعرف البلاغة ومكامنها وتعرف الجواهر ودررها.

هذا هو تنزيل القرآن الحكيم، الذي حكى ربنا سبحانه وتعالى
حكايته، وحين قال رب العزة ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. هو رب العزة والجلال.

وحين يكون هذا التنزيل وبهذه المثابة؛ ليأخذ ألبابنا أخذاً، وليشد إليه
قلوبنا شداً، نتضلع منه، ونتعلم منه، ونفיק به، ونشتاق إلى العود إليه مرة
ومرات كل وقت وحين.

إن هذا الفصل جعل هذه الآية كلا، وإن حوت أجزاء.

إن (كتب) فعل ماضٍ، مبني على الفتح، مبني للمجهول، أي: لم يسم
فاعله.

والأصل أن يقال: كتب الله عليكم الصيام، إلا أنه جاء هكذا مبنيًا
للمجهول، لماذا؟

أولاً: دلالة أنه ليس يفرض، وليس يلزم إلا ربنا الرحمن عز وجل، وإن
كان ربنا عز وجل في علاه بنى الفعل للمجهول، لعلمه تعالى أن عبيده سوف
يقولون: ومن ذا الذي يأمرنا سواك؟!

ثانيا: وهذا اطلاع رباني عظيم قدير؛ ولأنه وإن كان الله تعالى وحده هو الأمر النافع، وهذه كلية حسن الوقوف عندها.

ثالثا: ومن دلالات البناء للمجهول أيضا، وفوق أنه ذلكم علم الله عن عبده، وأنه ليس يأمرهم أو ينهاهم سواه عز وجل، وإلا أنه أيضا كان من دلالات حذف الفاعل، وبناء الفعل من أجله للمجهول، هو كذلك تعظيم الفاعل وتقديره!

ولأنه في النفوس معظم ومبجل ومنزه ومكبر ومقدس.

وهذا من دلالات بناء الفعل للمجهول أيضا.

ويكأن ربنا عز وجل علم أن عبده وإن يقدرونه حق قدره، أو هكذا يجب أن يكون.

ولأن ربنا الرحمن عز وجل قد نعى وشنع وعنف وتأفف نظمه الكريم عن أولاء الذين لا يقدرونه حق قدره، وحين قال ربنا الرحمن تبارك وتعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فكان في علم ربنا الرحمن تبارك وتعالى، أن عبده سيقدرنه قدره، وسيعظمونه حق تعظيمه، ووقوفا عند أمره، واجتنابا عن نهيه.

ولأنه هكذا هي خلاصة هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد، أن نأتمر بما أمر وأن ننتهي عما عنه نهى وزجر.

وهذه خلاصة سهلة يسيرة سلسلة ميسورة أيضا.

رابعاً: والفعل (كتب) من الكتب، والكتب هو ذلكم النقش، والنقش هو ذلكم الذي يحال عليه التبديل، أو التغيير! وهو المستعصي على المحو! وهذا شأن عظيم قدره، وحين يؤتى بهكذا كتب، أي: نقشن أي: حال عليه التبديل والتغيير والتعديل!

ويكأنه أيضا يحمل معنى الأمانة!

أي: إن هذا القرآن أمانة في أعناق العبيد.

وحين سطر هكذا، (كتب) أي: نقش.

ولئن كان الله عز وجل، وحين قال: كتب، أي: نقش، ويكأنه أيضا يقول: وفي حس العقلاء من العبيد أنكم مؤتمنون على ما قد كتبنا وخططنا ونسخنا ونظمنا ونقشنا؛ فلا تبدلوه يوما، أو تغيروه، أو تعدلوه، وكما فعل الذين كانوا من قبلكم.

وسوف يأتي كيف بدل من شأن هذا الصيام، ومن شأن غيره، وعدل، وافترى على الله كذبا.

فجاء الكتب برهان ثباته، وعدم تغييره.

خامساً: فيه أدب بلاغي؛ ولأنه هكذا كان التنزيل الإلهي الكريم؛ فإن معنى كتب، أي: فرض، وألزم، أي: فرضناه عليكم، وألزمناكموه أيضا.

سادساً: وإلا أن لفظ الكتب أخف على النفوس من لفظ الإلزام والفرض! ولذا كان اختياره!

وهذه بحبوحة القرآن، ويسر هذا التبيان، ولما كان من تنزيل الرحمن الرحيم.

سابعاً: ويكأننا نقف عنده إثباتاً، ونتعلم منه أيضاً وكيف نستبدل لفظاً بلفظ، يوحي بنفس المعنى أخف وطأة على النفوس؛ وكما تستقبله استقبالا، وكما تبتهج به ابتهاجا أيضاً.

ثامناً: إن هذه مغايرة في استعمال الألفاظ، أنبأك عنها، بدلا عن لفظ أنزل، أو فرض عليكم، في جميع الحقول.

تاسعاً: وهذا يفيد العاملين أمرا أو نهيا، من الرؤساء والقادة، كل في موضعه، أن يبدل لفظاً عن لفظ، وأن يغير مفردة عن أخرى.

وحيثما كان أخف وطأة، وأعظم يسرا، وسهولة، على نفس المتلقي. ولما كان مرئوسا.

إنه لتسعى إلى ذلك رؤساء المنظمات والهيئات والمؤسسات والمنشآت والجهات الإدارية وأرباب الأسر، نفيدها كذا لفظاً دون لفظ، أيسر فهما، وأسهل وقعا على النفوس.

عاشراً: ولما كان هكذا هو علم ربنا الرحمن الرحيم عز وجل في علاه، على أن الناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون ويتكاثرون ويبهدلون في طعامهم وشرابهم ونكاحهم، ولما كان ذلكم كله ومن مقتضيات ما قد فطر الله تعالينا لابنا الناس عليه، ولما كانت هذه وإنما عدت من المفطرات الأساسية.

ومن شأنه عقل حياتهم به، وما كان منه انتظام سلك أمورهم عليه.

وهذه أيضا من بحبوبة القرآن وعظمة البيان، من ربنا الرحمن.

وهكذا سلك انتظام حياتنا فأتى بهذا اللفظ تخفيفا؛ ولأنكم سوف تمنعون، وسوف تصومون، وتقلعون عنها، في هكذا نظام رتيب، فخففنا اللفظ عليكم؛ كيما يقع هذا المنع عندكم موقعا حسنا تستقبلونه ترحابا، وتبتهجون له ابتهاجا!

حادي عشر: وهذه أيضا تنمية بشرية يفيد منها أصحاب القرارات الملزمة، وحين يهونون من قراراتهم على نفس المتلقي.

وإن كان هذا الصيام مفيدا لكم صحة وبدنا ودينا وتقوى، وإلا أنكم يمكن أن (تزعلوا)! أو أن تتأففوا؛ من إلزامنا، ومن كتبنا، ومن فرضنا عليكم؛ فأتينا بلفظ كتب، تخفيفا، وحتى تصوموا وأنتم راضون عنا!

فليس الأمر الرباني سيفا مشهرا! وبقدر أنه تهوين من رب العزه والجلال، على العابدين!

المبحث الخامس: من دلالات استواء ربنا تعالى

سبق القول إن كتب أي فرض، وألزمتموه أيها المؤمنون الذين كان في سابق علمنا أنكم لستم تردون لله قولا ولستم تتركون له أمرا وإلا أنكم أيضا تنتهون عن كل ما نهى الله تبارك وتعالى عنه زجرا.

وقوله تعالى (عليكم): ويكأنك تستجيش معاني العلو والسؤدد والمقام الرفيع والسلطان الأقوم الأبهى الأعظم الأعلى الأسمى لهذا الرب العظيم المتعال.

علو ربنا تعالى واستواؤه: ويكأنك إذا وقفت على هذه الحيثية، وأن الله تبارك وتعالى وإن كان قد مهد لك بساطا وفراشا؛ لينشر إليك أمره، وإلا أنك يجب أن يكون في عقدك ذلكم العلو لربك الرحمن تبارك وتعالى.

مقتضى العلو لله تعالى: وإن هذا العلو وما وما تضمنه من سلطان عظيم قديم لرب العزه والجلال ليثبي أنه تبارك وتعالى الأمر وحده والناهي وحده.

وإذ وجب على البشرية ألا تستقي أمرا إلا منه، وألا تتلقى نهيا إلا عنه، وإن كل أمر صادر مخالف، ومن أية جهة، لأمر ربنا الرحمن تبارك وتعالى، فإنه والعدم سواء. وكذا كل نهى.

وهذا هو مقتضى قول رب العزه والجلال أيضا (عليكم)، فهذا الاستواء لربنا الرحمن عز وجل، وهذا العلو مقتضيان ألا يكون للعبيد سلطان إلا سلطان ربهم عز وجل وحده.

وهذا الذي نستشرفه من قول رب العزه والجلال (عليكم).

ويكأنك تشعر أيضا من حيث هذا العلو، ومن قول ربنا الرحمن (عليكم)، هي تلكم مظلة الحنو والرأفة واللفظ من ربنا الرحمن على عبيده المساكين.

ويكأن ربنا الرحمن تبارك وتعالى، ولما كان بنا رؤوفا رحيمًا، فإنه سبحانه ليس يأمر إلا من وسع، وليس ينهى إلا عن قدرة أيضا.

بمعنى أن ربنا الرحمن عز وجل وحين أمرنا فإنه تعالى يعلم ومن حيث قد أودع فينا طاقات خلافة جذابة، يكون من وسعها تنفيذ ما أمر به الله تعالى، وكذا وحين نهى.

فإن هذه الطاقات الجذابة الخلافة أيضا، كان من وسعها الانتهاء عما نهى عنه ربنا وزجر.

وهذا هو مطلق الحنو والرأفة لربنا الرحمن عز وجل.

وإن قست على ذلك والله المثل الأعلى غالب أوامر غيره تبارك وتعالى، وكذا غالبا نواهي غيره، لتجدن البون شاسعا أبدا.

وحيث كان من أوامر سلطان غير الله عز وجل وفي غالبها وإن شئت فقل حتى لا نجافي الحقيقة كثيرا في غالبها ربما كان في غير وسع العبد إقامتها أمرا أو الانتهاء عنها زجرا، والله المثل الأعلى.

وكيما نقف على حقيقة الرحمة واللفظ الربانيين.

وحيث أمر أو نهى ربنا، وقد كان في وسعنا أن نقوم به.

إن هذه المعاني أفيدها من قول ربنا الرحمن عز وجل في علاه
(عليكم).

كتب عليكم الصيام: ويكأننا نستلهم هذا الصيام كيفية وقدرًا، ومن
تعريفه بآل، كآنه الصيام، المعروف، المعهود، القائم، في الذهن.
ومنه كانت هذه التسلية الربانية أيضا.

ولما كان صياما معروفا معمولا به؛ فدل على أن ربنا الرحمن عز وجل
قد فرض علينا ما قد فرضه على الأمم السابقة السالفة.

ونحن بهم لاحقون، خلف لأولئك سلف، في هذا الصوم أيضا.
وهذه تسلية ربانية للعبيد، وحين قد أمروا بذلك الصيام المعروف
المعروف المعهود به.

وهذا تاريخ شاهد قائم، فإن الأمم التي تعيش في هذه أزمنة، ويكأنها
تصوم، وحين قد سبقت المسلمين، في تنزل كتب الرحمن عليهم.
وإلا فمن أين صاموا؟ وإلا كان هذا القرآن تصديقا، وإلا أنك من جملة
سلسلة تاريخية ضاربة في القدم!

وهذا الذي جاء بعد قوله تعالى (كتب عليكم الصيام)، من تعريفه
وب (كما).

وكما قال رب العزة والجلال (كما كتب على الذين من قبلكم)، فضم
تعريف الصيام كونه معروفا ذهنا وعهدا إلى هذه ال (كما)!

ولما كان الصيام كونه معروفا ذهنا وعهدا، ومن هذه ال (كما) وكما قدمنا. ويكأنها هي هذه كاف التشبيه التي أرجعنا إلى ماض سحيق كان علينا استدعاؤه أيضا فأشاع في الآية جوا محيطا مؤنسا وحين لم تكن وحدك بل كان قد سبقك تاريخ طويل كان عليه الصوم أيضا.

وذلك أوقع إيناس وأعظم إحسانا.

ذلك لأن هذه الكاف التشبيهية، أي سواء بسواء، وكما قد فرضنا وألزمنا وكتبنا على الذين كانوا من قبلكم أنهم صاموا وكما تصومون أيضا. وهذه حيثية عظمى؛ فإننا- معاشر المسلمين- نصوم رمضان هذا الصيام الذي هو الإمساك والاقلاع عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس.

وهذا هو صيامنا، بل هذا هو الصيام الذي أمر به رب العزه والجلال سبحانه وتعالى في علاه.

ومنه كان الإمساك عن المفطرات من طعام وشراب ونكاح، وهذه الثلاثة الأساسية المفطرات.

ويكأن الصيام قدرا وهيئة، ذلكم هو تقديره عند رب العزة والجلال. وقوله تبارك وتعالى (كما)، أي تشبيها بهذا الذي كتب على الذين كانوا من قبلكم.

ويكأنك تستطلع أيضا من خلال هذا العرض القرآني الكريم ذي الشأن أن صياما قد فرضه ربنا إن هو إلا في رمضان.

وإن هو إلا إمساك مطلق كامل تام عن الطعام وعن الشراب وعن النكاح كلية ومن طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، وغير مخالف.

ومن أين نشتم هذه المخالفة المنفية المشار إليها؟

والجواب، من قول ربنا تعالى في علاه ومن هذه الكاف التشبيهية.

وإنما وضعت هذه الكاف التشبيهية ها هنا قطعاً لدابر حجاج!

لا في قضية الصيام، ولا في كلفيته؛ وحين صام قوم صياماً على أمزجتهم، فصاموا عن طعام دون طعام، أو صاموا عن شراب دون شراب!

وذلكم بدع واستهزاء بأوامر الملك الحق المبين عز وجل، وحين كان أيضاً من حيث هذه الكيفية، ومن حيث كان أيضاً من قدر فإن ربنا الرحمن فرض على العبيد كل العبيد صيام شهر رمضان من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، وعن هذه المفطرات، أو ما نحا نحوها من طعام وشراب ونكاح.

ولقول رب العزة والجلال أيضاً: يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي.

ولهذا تفرد الرب العظيم المتعال بالإجزاء عن هكذا صوم أخلص فيه العبد لربه الرحمن تبارك وتعالى، قدراً وكيفية.

ومنه فإن هذا القدر من الصوم، وحين عدل من شهر إلى خمسين يوماً، قلت أو زادت، فإن هذا بدع من القول وزور؛ ولقول ربنا (كما كتب على الذين من قبلكم)!

فإنه يشمل سائر من كان قبلكم، وبلا حصر ولا عد!

فإن الآية عامة، لتشمل كل من كان قبلكم، فقد فرض عليه الصيام، وهو شهر رمضان، وهو من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، وهو الامساك عن المفطرات كلها إطعاما وشرابا ونكاحا؛ ولقول رب العزه والجلال عز وجل في علاه (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون).

وهذا الذي يجعل العبد منبهرا خائفا مذعورا؛ وحين يشط، أو يبعد، أو ينفر، أو يستنفر، وتأخذه النفرة، عن هذا السبيل، فيغوى؛ ومنه يخاف العبد على نفسه، أن تزل قدمه.

وكيما لا تزل قدم العبد، فإن عليه بقول ربه تعالى ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وذلكم الالتزام على هذه الضبطية الربانية.

إن صيام رمضان ليس يحول إلى شهر آخر موافق لأمزجة الناس، لاعتدال طقس أو مناخ.

وإنما يكون الأجر على قدر المشقة، فإن كنت تريد الأجر فلا تبتعدن عنه كيفاً وقدرًا.

وهذه هي البلية العظمى، وحين يكون لكل دين قوم، فيه يبتعدون، فيبعدون النجعة عن أصول ما رسم، وعن فروع ما قدر!

خلاصة: إنه يصام شهر، هو شهر رمضان، لا غيره، ومن طلوع
الفجر الثاني إلى غروب الشمس لذلك اليوم، وعن هذه المفطرات، فيدع
طعامه كله وشرابه كله ونكاحه كله، أو ما كان في معنى هذا كله أيضا.

المبحث السادس: حكم الصيام

إن هذه الآية تتضمن بيانا عن حديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم،
وحين قال فيما رواه الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى: بني الإسلام
على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام
الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان^(١).

وبه دل على أن هذا الصيام ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهو
الركن الخامس ههنا، وإن جاء ترتيبا أقرب، في غير ما رواية جاءت.

وبه وجب أن يكون هذا الصيام فرضا على كل مكلف مسلم بالغ عاقل
قادر على أداء هذا الصيام.

وحين لم يتوافر على القدرة، فذلكم هو الذي بينه ربنا الرحمن عز
وجل، وفيما سوف يأتي من بيان عن أحكام هذه الفريضة المباركة.

إلا أن هذا الوجوب وكركن من أركان هذا الدين الاسلامي الحنيف
الخالد، وبه دل، وكما قلت على وجوب صيامه.

وسبق بيان أن ربنا الرحمن عز وجل، قد فرض هذا الصيام، على الأمم
السالفة السابقة، على هذه الأمة الحنينية المباركة.

وقلت بأن ذكر ذلك فيه أمور.

ومن هذه الأمور، هو هكذا تسلية القرآن المجيد للأمة.

(١) صحيح البخاري: ٨، صحيح مسلم: ١٦

وحين لم تفرد بخصيصة الصيام.

وإنما وقد سبقها في ذلك أمم من قبلها.

وفي هذا من التسلية ما فيه رحمة من رب العبيد تبارك وتعالى، وهذا

أولا.

وأما ثانيا: فإن فيه من التشنيع والتعنيف على هكذا أمم قد سبقت،

وحين فرض عليها شهر رمضان صياما، من طلوع الفجر الثاني إلى غروب

شمس ذلك اليوم، وصياما عن كافة المفطرات ومما أنف ذكره من طعام

وشراب ونكاح أو ما نحا نحو ذلك.

وهذه خلاصة هذه الفريضة الكريمة الربانية المباركة، وحين قال ربنا

الرحمن عز وجل (كما).

إذا فإن هذه الكاف وحين كان من موضعها هذا وإنما لنتضلع منها،

ونستطلع منها، ونستشرف منها هذه الأحكام الثلاثة السالفة الذكر.

وبه دل، وكما قلت على هذا التشنيع القرآني، وعلى هكذا تعنيف قرآني

أيضا على كل من تنكب السير على هذا النهج أو خرج عن قضبانه ولو شيئا.

ولأنه وبهذه المثابة يكون مبتدعا.

وهذا الذي يقودنا ويسوقنا إلى القول الثالث، وهو حرص المسلم على

انتهاج طريق ربه ودرب دينه.

فيقوم على هذا السبيل وهذا الهدى، صائما شهر رمضان، وعن كافة

المفطرات ومما سلف.

إن هذه الثلاثة هي التي ينتظم معها وبها قيام العبد بفريضة الصيام.

وكما أكرر شهرا، ولقوله تعالى: كتب عليكم الصيام. المعهود المعروف في الذهن، والذي قد تواتر صيامه عن الأمم السابقة فرضا من لدن ربنا تعالى.

وإنه شهر رمضان لا غيره.

وكيف كان الابتداء في هذا الصوم، وحين حول من رمضان الى الربيع؛ وخوف الطقس والمناخ! وكما شددنا على هذا أنفا.

وإن العبد أولا للمأمور بالاتباع.

شهر رمضان إذا يصام شهر رمضان! ولا يحولن إلى شهر غيره! ثانيا وعن المفطرات كافة، فلا يسوغ أن يصام عن طعام أو شراب دون غيره!

وثالثا ومن طلوع الفجر الثاني؛ ولقوله تعالى: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

وإلى غروب الشمس، كما أنف.

وبه كانت هذه فريضة صيامنا.

فإن تحويله إلى شهر غير شهر رمضان بدعة.

وتحويله من شهر إلى أقل من ذلك أو أكثر بدعة.

وفيما قالوا: إن الله عز وجل قد فرض على الأمم السابقة صيام شهر رمضان، وحينما مرض أحد رهبانهم، فنذر إن شفي أن يزيد عليه عشرة أيام فصارت أربعين!

إن عباد الله الحنفاء يتلمسون الوقوف على الهدى، فليس يزيدون عنه، أو ينقصون منه شيئاً.

ثم لما مرض آخر، نذر وإن شفي أن يصوم سبعة أيام آخر منضافة إلى ما سبقه أخوه!

ثم مرض آخر، فنذر إن شفي أن تتم الخمسين يوماً على يديه! وأنت ترى كيف كان من هذا السبيل استهزاء بشرعة رب الأرض والسماء عز وجل في علاه.

فإن التشريع كل التشريع ليس ألعوبة في أيدي الناس.

وإنما التشريع هو من هذه العبودية لرب العزة والجلال.

وحين يكون وكما فرض رب العزة والجلال تبارك وتعالى، وكما قد أنف قولنا في أكثر من مناسبة، فإن عقلنا ليس له دخل في كثير أو قليل، وحين قد حط النص رحاله، وبين هدي ربنا الرحمن عز وجل في علاه، فإن ترك العقل هكذا للعقول، سبيل أن يؤتى على نور الوحي، وأن يغطي على ظلاله وضيائه ونوره وبرقه الجميل!

ثم يستبدل بذلك بدع من القول وزورا!

وهنا ليس يكون العبيد معبدین لربهم تعالیٰ، وإنما لأذواقهم ونزواتهم
ورغباتهم!

وقول بغير ذلك يحتج علیه بأنه خروج عما رسمت شریعة رب العزة
والجلال.

وحین كان من قصورنا نحن البشر أن نبلغ منه، ولو مبلغا.

ثم إن زكاء النفس، وطهارة القلب، موقوفان علی هذا التعبید لهذه
النفس ولهذا القلب للرب العظیم المتعالز

ولما كانت العبودیة هكذا شأنها العظیم، وبه لزم ووجب الوقوف
عندما رسمت هذه الشریعة، وبینت، وأحكمت، وفصلت.

ولأن الله عز وجل قال: (کتاب أحکمت آیاته ثم فصلت من لدن
حکیم خبیر)

فإن حکمه تعالیٰ ولکونه خبیرا بصیرا ینفی دخول أحد من الناس
کائنا ما کان هذا الأحد أو الأحاد فی مسألتي الأمر والنهی.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لعلكم کلکم، تتقون کلکم!

إن هذه الآیة التي نحن بین یدیها فیها لفت عظیم شأنه کریم قدره،
وإن سئل وكيف؟

قلت: بهذه الضمائر المتزاحمة المتکاثفة فیها؛ لفتا لانتباه العبید،
ووقوفاً بهم علی حقيقة رحمة رب العبید!

فإن هكذا تناغم؛ ومن ذكر هذه الضمائر الموحية للحركة والتفاعل والطاقة المبذولة والشغل أيضا يجعل العبد في تفاعل مع هذه الآية الكريمة. وحين يأخذها من أولها: آمنوا (واو الجماعة)، عليكم: (كاف الخطاب)، ومثلها في (قبلكم) ولعلكم ، تتقون: (واو الجماعة). أنت دائر بين ثلاثة ضمائر خطابية، واثنين من ضمير واو الجماعة، وتشتم أيضا فيه رائحة الخطاب!

وهذا إعلاء شأن من الله العزيز الوهاب لعبيده.

وحين كان بهم رحيمًا؛ ومن خطابك ومن لفت انتباهك ومن حركتك الدائبة التي قد لمستها من هكذا انتباه ولفت إليه، ومن ذكر هذه الضمائر جميعها!

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: إن هذا الصيام سبيل تقواكم، وطريق إيجادكم ووضعكم على الجادة.

وتقواكم: هي ذلكم التوقي من الوقوع في المحذور، وهو ذلكم المسارعة إلى فعل المأمور.

وبه فزتم بحقيقتين عظيمتين: ولما قد تركتم المحذور، ولما قد فعلتم المأمور، وهذه أيضا هي خلاصه ديننا: فعل المأمور وترك المحذور.

لعل: ومن المعلوم أنها تفيد رجاء، إلا أنها في حق رب الأرض والسماء تفيد تحقيقا.

ويكأنك أيها العبد المطيع، وحين تسلس قيادك لربك الرحمن، وإنما قد حباك وأعلاك وأسناك وأبهاك بزيينة التقوى، وحين قد منَّ عليك ربك الرحمن بهذه التقوى؛ كيما تقف، حق الوقوف، على فعل المأمور وترك المحذور.

وهذه هي غايه سعادة العبد، وأن يقف على إرضاء ربه تعالى، وحين تلبس بهاتين الصفتين الجميلتين العظيمتين.

ويكأن العبد وحين يقوم بهما فقد اتقى وأيما تقوى، وقد سعد وأيما سعادة، يريدها عبد أواب.

وإلى أن يرضي ربه عنه.

إن هذا الذكر اللطيف الحني الرضي الجميل الجليل أوقفنا على حقائق أيضا، ومنها:

١- ويكأنك تشتم من قوله تعالى (لعلكم) أي: أجل، فتشتم رائحة وعبق ونسيم التعليل والتسبيب.

٢- إن هذا الصيام أجل أن يبلغ بكم مبلغ التقوى! وهذه واحدة.

٣- وإن جاء على لفظ لعل، فإنه يقصد به حقيقة التقوى.

٤- ثم إن هذا الصيام أجل أن يبلغ بكم مبلغ التقوى وهذه واحدة.

٥- وإن جاء على لفظ لعل الظاهر منها الترجي، والمقصود منها

حقيقة التقوى، ثم مجيء خبر لعل على أنه جملة فعلية، من الفعل

المضارع تتقون و واو جماعته، وهكذا جمعت بين تجدد واستمرار

لهذه التقوى!

- ٦- وحين كان خبر لعل هكذا جملة فعلية وكان لعلكم تتقون أيضا
وحيث جاءت جملة إسمية، ومما سبق بيانه؛ لتقف أيضا على حقيقة
هذا الاستمرار، وحينها جمعت بين استمرار وثبوت استمرار!
٧- ومن ملاءة الجملتين الملتحمتين المترابطتين الجملة الإسمية (
لعلكم تتقون)، ومن خبرها (تتقون).
٨- فدل على كم كان هكذا عظم دين ربك الرحمن، وقرآن ربك
الديان؛ وحين قد ألبسك لباس التقوى، ولباس التقوى ذلك خير.

الفصل الثاني

تفسير قوله تعالى

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۚ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۚ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ۚ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ١٨٤].

وفيه أحد عشر مبحثاً

المبحث الأول: العلاقة بين الصيام والجهاد

وهذه هي الآية الرابعة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة.

وفيهما بيان وتشريع وأحكام لهذا الصوم، الذي هو من شرائع ربنا الرحمن، ومن أركان ديننا الإسلام الحنيف الخالد.

وبادئ ذي بدء هنالك ملحوظة هامة، تفرض نفسها على مائدة هذا البيان.

ذلك أن هذا الصوم الذي قد فرضه ربنا الرحمن عز وجل، وجعله ركناً من أركان هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد.

وإنما يعد توطئة وإنجازاً، وتمهيداً، وهكذا تعويد النفوس على تعبيدها لربها الرحمن عز وجل.

وإذ تراها متقلبة في أمور التقوى، ولباس التقوى ذلك خير، فإن ربنا الرحمن عز وجل، وحين تجمع بين هاتين الآيتين وبين هذين المدلولين:

١- مدلول التقوى في آية الصوم؛ ومن قوله تعالى (**لعلكم تتقون**).

٢- ومدلول التقوى في قوله تعالى (**ولباس التقوى ذلك خير**)، ذلك على هذا التشبيه العظيم، الذي قد جذبك جذبا وشدك شدا.

وحين تستحضر التقوى كلباس تلبسه، وكزي تتزي به.

في هذا تعبير قرآني لطيف فريد جميل أيما جمال.

ومنه كان هذا الصوم؛ كيما يتلبس العبيد بتقواهم لربهم الحق.

إنك تستشعر أن التقوى هي ذلكم اللباس، الذي تزي به العباد، فزادتهم أجمل زينة. وأظهرتهم في أبها صورة.

ويكأنك وحين تقابل أحدا يلبس لباسا جميلا، ويكأنك تنظر إليه بعين التقدير، وبعين الأبهة. بل ولربما صرف نظرك إلى لباسه، الذي يلبسه وأكثر من اللابسي!

وهذه لفظة من لفتات قرآننا.

ولباس التقوى، ذلك خير، فخير لباس يرتديه العبد، هو لباس التقوى.

وأكرر إنك ترى صورة مجسمة، أمامك لابسة تقواها، ولما كانت لابسة تقواها، فذلك حتما على أن ذلكم لابس هو تقي أيضا.
وهذا تصوير بليغ أيما بلاغة، جميل أيما جمال، حسن غاية حسنه.

وهذه واحدة لطيفة أردت بيانها، وذكرها، في بدعها، وحسنها، وجمالها، وبلاغتها؛ كيما نتذوق قرآننا، أو هكذا أريد أن نقرب من تذوقه، بحيث يصير، مذاقا طعمه، حسنا شرابه، حلوا طعمه.
والفريدة الأخرى، التي أريد أن أقدمها، بين يدي البحث، وبساط التأمل، هي:

ولما كان الصيام سببا موجبا للتقوى، ومما أنف.
ولما كان الصيام قد فرض في السنة الثانية للهجرة، أي على بعد زمن طويل مذ كانت بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.
وهذا الذي ندور ونطوف حوله أيضا.
ولأن في الصوم خروجا عن مألوفات النفس، فكان هذا البعد الزمني الطويل، من بين يدي البعثة، وإلى السنة الثانية من الهجرة.
فيما تعد النفوس إعدادها، وتستأهل هذا الحكم الرشيد، وهذا الركن السبيل، من دينها، فتقبل عليه سهلا.

وهذه وقفة جميلة، بين يدي البحث؛ ولأن الخروج عن مألوفات النفوس، يعوزه وقت، وزمن وتأهيل، وتدريب، وتمارين؛ كيما تستقبل

أمر ربها طواعية، واختياراً، ومحبة، وتفوقاً، وإقبالاً، ومسارة، ومسابقة إليه.

وخاصة الخصوص، وحين يكون الأمر متعلقاً بالعبادات القلبية. والتي يكون فيها الرقيب الأول، هو ذلكم العبد، على ذات نفسه، ومن بعد مراقبته لربه.

إن هذا معنى أيضاً حسن الوقوف عنده.

وثمة معنى آخر جميل أيضاً: ولما كان الجهاد في سبيل رب العزة والجلال، قد كان فرض في السنه الثانية، من الهجرة أيضاً.

وإلا أن الصوم كان أسبق فرضاً على الجهاد.

فدل أيضاً على هكذا تمهيد، وهكذا توطئة، وهكذا تدريب، وهكذا تمرين، لهذه النفس، بينها وبين خالقها، وكما تتعود لله تقواها، وكما تتأهل، وحتى وإذا نادي مناد الجهاد، أن حي على الجهاد، وإذا تراها منخلعة انخلاء، سباقاً سبقاً، متسارعة تسارعا إيجابياً، لا يعرف السلب يوماً.

فكانت هذه التوطئة، من فرض الصيام، قبل فرض الجهاد.

وكما تكون هناك فسحات لانتقال العبد، وقلبه، وذات نفسه، من هذه الخشية، وهذه التقوى، التي كانت له لباساً، وإلى تحقيق عملي آخر يضبطه حبه ومنافسته، ومسارعة، لتنفيذ أمر ربه.

وحين قال له: (وجاهدوا في الله حق جهاده).

هو بسبب هذا التأهيل، ونفيد منه أيضا في دراسات الناس، وفيما يسمونه بالانتمية البشرية، وحين تكلف النفس تدريبا بالأقل فالكثير فالأكثر، وهكذا.

وفي حسنا الإسلامي، فإن العبد إذا أحسن علاقته بمولاه تعالى، ومن خلال حقل الصوم هذا، ومن خلال دربة التعامل القلبي مع رب العزة والجلال، يكون تأهيله في ساحة ومعمة الأمور العملية أدعى وأوقع.

وهذه حيثية هامة أيضا حسن الوقوف عندها.

وحيث يكون تأهيل النفوس ومرة أخرى وأكرر بتقلبها في أصول التقوى والمراقبة والخشية، فإن هذا سبيلها إلى نجاحها وفلاحها في الأمور العملي.

وذلك أن المراقبة في أمور القلب والنفوس والأرواح، تكون بمثابة الترسخ والتثبيت لإعداد أمة وأجيال فريدة تواقة إلى بذل مهجها وأنفسها في سبيل ربها، وبحيث يرخص كل شيء في حياتها، وحيث كان لربها، وهذا الذي يحسن الوقوف بين يديه أيضا.

المبحث الثاني: رسالة التيسير

ونحن إذ نتلمس من هذه الآية الكريمة هو هذا التيسير الرباني، ومن هكذا الأنس بالصيام.

وذلك هو الشأن في أحكام شريعتنا كلها.

ولما كانت قائمة على جلب التيسير، ودفع المشقة.

ذلك لأن هذا هو المتوافق مع كون إن الله تبارك وتعالى هو بنا رؤوف رحيم.

ومن رافقه تعالى ورحمته أن يسر لنا وأزال عنا كل عسر.

وذلك أيضا هو الذي نستشرفهن رحمة من الله تعالى ورضوانا.

ذلك أنه وليس من معنى بسط السلطان إلا هذه الرحمة.

وهذا معنى نفيده ويفيده سلاطين الزمان أن يكونوا رحماء برعيتهم، ميسرين عليهم لا معسرين.

وذلك استشفافا واستنباطا من هكذا آيات الصيام التي نحن بين يديها.

ولما كان الصيام سببا وسبيلا للتقوى، فذلك عائد إلى العبد.

وهذا من الرحمة، والرفق، واللطف، والتيسير، ودفع المشقة، ورفع التعسير.

ولما كان الصيام وكما نحن بين يديه الآن أياما معدودات، فدل أيضا على مطلق التيسير، ودفع كل مجال ممكن مما يسمونه التعسير.

إن هذا المعنى وحين نستشرفه نحمد ربنا أبدا.

وحين قد أمر وإلا أنه لطف ورحم ويسر وكل سبيل ممكن للتيسير، وحين قد سلكه هذا القرآن.

وكم كان بنا ربنا رؤوفا رحيمًا؛ فنزداد له شكرًا، ونخر له سجدا؛ أن أمرنا ويسر لنا في هاتين طريقتين من طرق التيسير، ودفع كل سبيل، وكل سبب ممكن، أو يتخيل من هكذا عسر.

قإن قيل: ومن أين موجب التيسير؟

قلت:

١- من قوله تعالى (أياما)، وحدها، فإنها تشي بهذا القرب، وهذا الأمد القريب المنتهي، وعن قريب أيضا!

٢- ثم من كلمة (معدودات): ويكأنها، وحين كانت قابلة للعد، فدل على أنها قليلة، وهما بلغت من كثرة!

٣- وهذا المعنى الواسع الفضل في بيان هذا التيسير، ومن اهتمام عبق التقليل في مدة الصيام جعل القلوب مشرّبة إليه مستشرفة زمانه ووقته!

٤- وأنت ترى سوقا داخليا لدى الحنفاء، وحين تهب عليهم رياح شهر رمضان، وأن تراهم مستأنسين مستبشرين فرحين مغتبطين؛ ولأنه يستصحب في حسهم ومما يستصحب هذه القلة في العدد، وهذا

الأجر العظيم، وحين تنفتح قلوبهم آفاقا واسعة رقراقة مديدة وفي طاقات خلاقة واسعة أيضا، إلى استشراف هذا المدد الرباني، وبما يوحى إليهم من قلوبهم وأفئدتهم وألبابهم ونفوسهم من هكذا زاد معنوي وروحي وإيماني.

٥- ويكأنك تحسبهم ملائكة يمشون في أرض الله عز وجل.

٦- وحين ترى هذا يغضض من بصره! وهذا يقصد من مشيه! وهذا يرتل قرآنه! وهذا يسمح ويعفو!

ومن قوله صلى الله عليه وسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام؛ فإنه لي، وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يفرث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه^(١).

٧- وهذا أمر متلبس بالنهي، ويكأنك لا تفرث ولا تفسق، وإن سابك أحد أو شاتمك، فلتقل إني امرؤ صائم.

٨- في هكذا علو على رغائب النفس السفلية، فلا ينتقم، وليس من عقده أن يقول: فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.

(١) صحيح البخاري: ١٩٠٤

٩- بل فليقل إنني امرؤ صائم في هكذا سمو أخلاقي، وعلو جليل الشأن على نزغات الشيطان، وأزوائه، ورغباته!

١٠- وهذا هو الذي يستشرق، ومما يستشرف، من قول ربنا الرحمن عز وجل في علاه: (أياما معدودات).

بلاغة وزن القلة: ويكأنني بك تقول: ومن أين أيضا نفهم أنها قليلة؟ وأسارعك قولاً: ومن مقتضى لفظ كلمة (أياما)، وإن جاءت جمعا، وإلا أنها تحمل بين جنباتها القلة في العدد، والعظم في الأجر! ويكأنك تقول زدني، فأقول لك:

جاءت (أيام)، على وزن أفعال، وأفعال هذه من أوزان القلة؛ فذلك على أن أي صيام ومهما بلغت أيامه، فغنه وقد بلغت من القلة مبلغها! وحين تقيس شهرا من اثني عشر شهرا، يعني ما نسبته: ١ : ١٢، ولتحسبها وكم من النسبة المئوية، ولتكون نسبه مئوية قليلة، وحين يقياس شهر على اثني عشر شهرا!

ومنه نستحضر هذه القلة،

ولأن العرب قد جرت وسلكت أن الجمع اللذي هو معدودات، إذا جاء بعد جمع تكسير، فدل على أن ذلكم هو مقتضى القلة! وهذه واحدة وهم يقولون في لغتهم هذه أيام معدودات، فيجمع بعد جمع، فدل على قلة، أو يفرد بعد جمع فدل على كثرة!

منهج القرآن في بيان وزن القلة:

سورة آل عمران نموذج (١): وهكذا في قول ربنا الرحمن عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

انظر كيف سلك أهل الضلالة مسلكهم، وحين ادعوا أن مس النار لهم لن يكون، وإن كان فلسوف يكون محصورا في هكذا قلة من عدد! إن نص القرآن الكريم قد كان موحيا بذلك استهزاء القوم وتنقصهم من هكذا قيومية رب العزة والجلال تبارك وتعالى!

سورة البقرة نموذج (٢): ثم إنه بين يديك أيضا قول ربك الرحمن عز وجل عن أيام التشريق ومن بعد حج بيت الله الحرام العتيق ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

والأيام المعدادات ها هنا هي أيام التشريق، وكم هو عدد أيام التشريق؟

اثنان أو ثلاثة! ولقوله تعالى ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَى ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [القرة: ٢٠٣].

فدل على أن أيام التشريق يمكن أن تكون يومين، ويمكن أن تكون ثلاثة، ومنه فكانت بالغة من القلة مبلغها.

ومنه تجمع هذه الأدلة كلها دلالة القلة، إلى قول رب العزة والجلال:
أياما معدودات؛ تسلية لهذه الأمة الحنيفية الكريمة الشأن.
وحين كرمها ربها تعالى، أنها كذا، وقد حباها بنعمة الصوم، وإلا أنه
كان قليلا زمنه، عظيما أجره. في هكذا استدعاء واستشراف لهكذا طاقات
خلافة خلافة، حباننا بها ربنا الرحمن عز وجل.

المبحث الثالث: المشقة تجلب التيسير

وإننا لندور حول العبير والتنسم من هذا العبق وهذا النسيم وهذه الحداثق الغناء وهذه البساتين الفيحاء هكذا معطيات قرآننا، وكما ننادي ونحن كلنا ثقة أن هكذا هو ديننا، دين يجلب اليسر جلبا، ويدفع العسر دفعا.

المشقة تجلب التيسير: ولما كانت هكذا آيات الصيام، ومما أنف ذكره، وإذ نكرره؛ وكما يثبت ويقرر ويتقرر، وحينما قالوا إن المشقة تجلب التيسير.

ولئن حسب أن في الصيام مشقة؛ ولأنه ومما أنف خروج عن مألوفات النفس، عاما كاملا.

وإذ جاء بها في رمضان، فحيد نشاطها، وقيد عملها؛ وكما تفيد هذه النفس أيضا.

وحين تعلم أن وقتا تدين فيه لربها تعالى، فتكبح فيه جماحها، ويسار فيه إلى فطامها.

وإنما كانت الرتابه من شأنها، وكفى أنها رتابه، تبعث مللا، وتسبب خلا.

ومن بين جنباته نوع مشقة، وخروج عن مألوفات النفس، وكما قلت. وإلا أنه خير لهذه النفس، وحين تحيد ولما تقيد، وحين يرسم لها منهج، وإن كان في صالحها، غاب أو حضر ذلك في ذهنها.

ويكأنه، ومن شفافية النفوس الزكية، وحين تعلم يقينها أن ربها سوف لا يقيدھا، وسوف لا يحدها، وإلا ما كان فيه خير لها.

وكان من هذا التيسير الذي ظلل آيات الصيام كلها، هو هذا الذي نحن بين يديه الآن.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: وأنت تلحظ وترقب هذا المشهد عن قرب، وكيف تأتي لك هذا التيسير من ربك اللطيف الخبير.

إن هذه آيات الصيام، التي نحن بين يديها الآن، فيها تعجب! وبادئ ذي بدء، فإن هذا التعجب يشي بكم كانت رحمة تعالى، وكم كان يسر ربنا بنا!

وكلها تحمل مضامين اليسر والرحمة واللفظ والشفقة، وبما أغنى عن ذكر اسم واحد من أسماء الله الحسنى في هذه الآيات، وإلا قول ربنا الرحمن عز وجل: يريد الله بكم اليسر.

فإن ذكر عز وجل في ختام هذه الأحكام كلها، ومن لفظ الجلالة (الله)، وبما يوحيه من سلطان وقهر وقدرة وقوة، وإلا أن هذه الآيات قد خلت من ذكر اسم الرحمن مثلاً!

وإذ نحن في مضامين الرحمة، وقد خلت من ذكر اسم الرحيم، ونحن في ساحات الرحمة، ومن ذكر اسم اللطيف، ونحن في بحار اللطف كله.

ومن ذكر هذه اللطائف، وحين يقف عليها العبد، ليقشعرن بدنه، وليخبتن قلبه، ولا تزكون نفسه، وحين أعطي عن ذلك ببيان هذه المجموعات الشاملة بكل مضامين الرحمة والرأفة واللفظ.

فأغنى اسم الجلالة (الله)، عن ذكر أسماء الله تعالى الحسنی، من رحمته ورحمانيته ولطفه ورأفته.

وهذا معنى أحب أن نقف عليه.

ويكأن آيات الصيام تحكي كلها حكاية الرحمة والرأفة واللفظ، وتنبض لنا هكذا نبض الرحمة واللفظ والرأفة أيضا.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾: هذا هو أسلوب الاعتناء بك أيها العبد، وحين رفرفت نسائم الرحمة، والشفقة، بك، وعليك.

ويكأنها قد كستك، فألبست؛ من موجبها، رداء اللطف كله، والرحمة كلها، والرأفة كلها.

وإذ ماذا تريد إلا وقد منَّ عليك ربك، ومن ذكر تعالى لك هكذا ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

فمن كان منكم أيها المسلمون مريضا أو على سفر فنجبر خاطره أن يفطر، ولكنه ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ﴾.

وإنما يستصحب معه شأن الصيام وفضله وأجره.

بل أنت في بحبوحة ووسع الرحمة واللفظ والرأفة أيضا.

وحين كان هذا الاهتمام القرآني بك، ومن ضمير الخطاب الوارد في قوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أيها العبيد الذين خوطبتم، ويكأننا نبسط لكم، ومن بينكم، ومن خلفكم، بساط رحمتنا؛ دليل خطابنا واهتمامنا بكم، ومن قولنا ﴿مِنْكُمْ﴾!

وإنه لأسلوب حان أيما الرحمة، التي تكتفك وتحفظك وتحوم حولك مظللتك ظلالها الهادية الهادرة المرفرفة النسيمية العليلة!

وأنت رأيت ثم رأيت، كم كان أسلوب الشرط حاسما، وحين أجزل الكلام إجزالا، وحين كان بهذه المثابة، من التركيب، والترتيب، المضبوط، الملتئم، المنسجم.

ويكأنك في لحمه واحدة، لا تقبل تجزئة.

ولما جاء هكذا أسلوب الشرط بأركانه ومن أدواته ومن فعله (كان)، ومن جوابه (فعلة).

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾: أي الذي أصابه المرض حقا، فإن له أن يفطر.

وهذه من مسوغات الإفطار؛ ولأنه، وإذا قلنا إن المفطرات طعام وشراب ونكاح، وإلا أن هذه المفطرات تكون جائزة تناولها؛ ولضرورة المرض، ولشأن السفر.

وهذا موجب التيسير، ومن قوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج).

ولا ثمة حرجا واحدا؛ دلالة هذا الذي نحن بين يديه الآن.
وهذا الذي حمل بعض أهل العلم، بل كثيرا منهم أن يحمل لفظ المرض
على عمومته.

فهل كل مرض يسوغ فطرا في رمضان : هذا الذي وقفوا عنده، ما
بين موافق، ومؤيد، ومعارض ومحدد.

فالذين قالوا بعموم اللفظ: أجازوا أن يفطر المريض، وأيا ما كان
مرضه؛ لعموم الآية.

والذين حدوه بحد المشقة، وبحيث يحصر صيامه، ويشق عليه ذلك.
فهو الذي جاز له الإفطار، ومن ثم ليقضي من بعد رمضان، عدة من أيام
أخر.

ولأنهم عللوا، وقالوا وأسهبوا وفصلوا تفصيلات، ليس هنالك محلها؛
ولأن الضابط في مسألتني المرض والسفر، هو ذلكم المراقبة.

وهذا معنى حثيث جميل قدير شميل فضيل جدا.

وحين قد جعلك ربك أمينا على ذات نفسك، ولتفطر؛ وحين كنت
مريضا، هو ذلكم المرض الذي رأيت أنت أنه قد يشق عليك الاستمرار في
الصيام من أجله ومعه!

وهذا غاية الائتمان وغاية اللطف، وغاية اليسر، وغاية السعة والرحمة
واللطف والرفقة من ربك. وحين قد أسبغ عليك نسائم لطفه، ولما قد ائتمنتك

أن تفطر، وحين كنت مريضا شق عليك معه صيامك، ولأن ربك يعلم عنك حرصك وعنايتك واعتناءك وحفظك لحدوده.

وهذا معنى واسع فضفاض جدا، عظيم الشأن، جليل القدر، أن تكون عند محل علم ربك بك، وأنت ذلك العبد الذي ليس من شأنه التفريط. وكما أنك ذلك العبد أيضا الذي ليس من شأنه التفريط!

المبحث الرابع: أهل الأعدار

وإذ تقف بنا هذه الآية الكريمة، على بيان أحكام الصيام، والإفطار،
نسبة المسافر والمريض وغير القادرين.

وبادئ ذي بدء، وكما أننا نصول ونجول من بين سنا ونور وضوء هذا
القرآن المجيد، وحين قد تحلى بيسره، ولما قد نفص عنا معاشر المسلمين
العسر كله.

ويكأن هذه رحمة ربنا الرحمن، وبين أيدينا هكذا سنن نبينا محمد
صلى الله عليه وسلم، وهو ذلكم السنن، وهو ذلكم الهدى، الذي نبين منه
فهمنا لقرآن ربنا اللطيف العظيم.

ولأن ربنا الرحمن عز وجل، وحين قال ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ
كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ
يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۚ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۚ وَأَن
تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فلزم أن نستجلي بعضا من
أحكام السفر، ومن أحكام المرض، ومن هكذا هدى نبينا محمد صلى الله عليه
وسلم.

وهو الذي نؤكد ونكرره، وحين يبين لنا منه فهم هذا القرآن العظيم
جدا.

ولأن ربنا تعالى قال (لتبين إليهم)، فوظيفة نبينا محمد صلى الله
عليه وسلم، أن يبين قرآن ربنا.

ومنه هذا الذي نحن بين يديه، ومن قول ربنا الرحمن عز وجل في علاه
﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۚ فَمَنْ تَطَوَّعَ
خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ومنه حديث الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله بن حرام رضي الله تعالى
عنهما وحين روى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عام الفتح
إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ كراع الغميم، فصام الناس، ثم
دعا بقدر من ماء فرفعه، حتى نظر الناس إليه، ثم شرب، فقليل له
بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: أولئك العصاة، أولئك
العصاة. [وفي رواية زاد]: فقليل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام،
وإنما ينظرون فيما فعلت، فدعا بقدر من ماء بعد العصر^(١).

إن الضابط في مسائل السفر والمرض وعدم القدره كالشيخ والحامل
والحبل هو ضابط المشقة، وانظر من فقه الحديث يوم فتح مكة، وكم من
مسافة بين مكة والمدينة، وكم هي مشقة بلغت بهم مبلغهم، والحال أنهم في
عدة وعدد لهكذا فتح مبين لبلد الله تبارك وتعالى مكة المكرمة، وما أنت
تستحضره من هكذا مشقة وعناء قد أصابت القوم، ويوم أن جاؤوا من
المدينة إلى مكة في مسافة تقرب من خمسمائة كيلو مترا .

ويوم أن كانوا يسافرونها ركوبا على الجمال، وهذا الذي أدى بنبينا
صلى الله عليه وسلم، أن يقول عنهم: أولئك العصاة أولئك العصاة.

(١) صحيح مسلم: ١١١٤

وأما القياس على سفر الناس يومنا هذا، وحين يركب أحدنا طائرة من مكة إلى المدينة، أو العكس، في نفس المسافة، ومن قائل لعموم اللفظ، وكما أنف ومن قوله تعالى: (فمن كان منكم مريضا) أي عموم المرض، و (أو على سفر) أي عموم السفر. فليس لأحد كلام معه، وأن أخذ بضابط المشقة والعناء، فإن ذلكم قول قاله نفر من العلماء.

وهذا حديث بين أيدينا سقناه، رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله تبارك وتعالى عنه ما وفي حديث آخر رواه الشيخان الإمامان البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله تبارك وتعالى عنه: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم، أكثرنا ظلا الذي يستظل بكسائه، وأما الذين صاموا فلم يعملوا شيئا، وأما الذين أفطروا فبعثوا الركاب وامتهنوا وعالجوا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ذهب المفطرون اليوم بالأجر^(١).

هذا حديث وقف أمامه أهل العلم، وجنبا إلى جنب مع حديث آخر، وهو : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: صائم، فقال: ليس من البر الصوم في السفر^(٢).

فنفي برا عن صائم في السفر.

(١) صحيح البخاري : ٢٨٩٠

(٢) صحيح البخاري : ١٩٤٦

وقوله صلى الله عليه وسلم ذهب المفطرون اليوم بالأجر؛ كناية عن فضل الإفطار للسفر، ويكأنه صلى الله عليه وسلم غص طرفا عن الصوم، وإذ لم يذكرهم بأجر، فدل ذلك على رخصة الصيام في السفر، وكذا المرض يبينه رخصة أم عزيمة: وهذا الذي وقف أهل العلم عنده أيضا، وحين قالوا: هل الإفطار للسفر والمرض رخصة أم عزيمة؟

والفرق بينهما أنه إن كان عزيمة فوجب الإفطار للسفر والمرض، وإن كان رخصة فإنك بين يدي حديث نبيك محمد صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه^(١).

وعن أنس أيضا أنه قال: عن أنس بن مالك قال: أغارت علينا خيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهيت أو قال فانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يأكل فقال اجلس فأصب من طعامنا هذا فقلت إني صائم قال اجلس أحدثك عن الصلاة وعن الصيام إن الله تعالى وضع شطر الصلاة أو نصف الصلاة والصوم عن المسافر وعن المريض أو الحبلى والله لقد قالهما جميعا أو أحدهما قال فتلهفت نفسي أن لا أكون أكلت من طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).

وبه دل على أن ذلك رخصة، وبه أيضا يستوي الطرفان، فمن أخذ بكونها رخصة، فإن هذا هو ظاهر الحديث، وجمعا بينه وبين حديث الإمام

(١) صحيح الترغيب، الألباني: ١٠٦٠

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٢٤٠٨

مسلم عن جابر، وحديث أنس الذي رواه الشيخان- الإمام البخاري والإمام مسلم- وهو نفسه أنس رضي الله تبارك وتعالى عنه الذي روى حديث طعام النبي صلى الله عليه وسلم ودائه وهو صائم صلى الله عليه واله وسلم.

وفيه أرخص الفطر للمسافر وكذلك للحبلى والمرضع.

فالرخصة للسفر نحيث عن المشقة، وفصلت عنها

ويكأننا نستجمع معها أيضا أن السفر وأيا ما كان، فإن فيه بعض مشقة.

وأما الحامل والمرضع، فقد رخص لهما إذا خافتا على ولديهما.

ثم قالوا إن الحمل والإرضاع نوع مرض، وبه يسقط الصوم عن كليهما المرضع والحامل.

قضاء الصوم: وبه ينطبق عليه ما قاله رب العزة والجلال: (فعدة من أيام أخر) أي من أفطر في رمضان لسفر أو مرض، أو من أفطرت في رمضان لحمل أو إرضاع، وإنما على كل أولئك صيام عدة، أي بعدد الأيام التي سلف وسبق فطرها من رمضان.

نفس عدد الأيام تقضى من بعد رمضان.

والخلاف دائر حول وجوب القضاء وقبل رمضان التالي أم يمكنه أن يتعدى إلى ما سواه: وهذه روح شريعتنا؛ ولأنها قائمة على تعجيل قضاء الدين، ودين الله تعالى أحق أن يقضى، وحيث ما انتهى السبب، فإذا زال المرض أو السفر، وإنما وكما قد أباحت لك الشريعة ويسرت، فكان من

موجب ذلك أن يقنع العبد بكفاء ذلكم تيسير، ومن ثم وعند زوال السبب يقضي ما عليه تأديبا مع رب العزة والجلال.

وذلكم أيضا هو ضابط كل أمورنا مع ربنا تعالى.

مسافة السفر: بقيت مسألة مسافة السفر المجيزة للفطر.

وفيها أقوال عريضة كثيرة لأهل العلم في هذا الشأن، وليس يكاد يخفى، وإنما ومن باب التذكير، ومن حديث رواه الامام النسائي رحمه الله تعالى وصححه الالباني أن دحية بن خليفة خرج من قريته إلى قرية عقبة بن عامر من الفسطاط في رمضان، فأفطر، وأفطر معه الناس وكره آخرون أن يفطروا، فلما رجع إلى قريته، قال : والله لقد رأيت اليوم أمرا ما كنت أظن أراه . إن قوما رغبوا عن هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، يقول في ذلك للذين صاموا، قال عند ذلك : اللهم اقبضني إليك^(١).

(١) صحيح ابن خزيمة: ٢٤١٣

المبحث الخامس: فضل الصيام

ولا زال فيضها مستمرا، ولا زال عبقها ونسيمها وعليها فواحا أبدا، يستمرئه المؤمنون، ويتذوقه الصائمون، ويحتسبه المتقون.

وإذ نحن بين نفحات شهر عظيم، هو شهر رمضان، هو شهر الصوم، ولما كان هذا الشهر علما على قرآن ربنا تعالى، ولما كان القرآن علما عليه أيضا.

ولما كان شهر رمضان شهر الصوم علما على هذا الصوم والعكس أيضا؛ فدل على كم كان عظم هذا الشهر، وعظم هذا الصوم، وعظم هذا القرآن.

فضل الصوم: وأنت خير بقول رسول الله محمد نبينا صلى الله عليه وسلم: **من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه^(١).**

وهذه جائزه إلهية للعبيد المؤمنين المساكين الى رحمة ر بهم وعفوه ورضاه. وإذ زادك رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ومن هكذا فرج ربك ومن هكذا جوده ومنه وكرمه غفرانا لذنبك وتجاوزا عن خطاك وحين كان صومك لربك الله تعالى مخلصا فيه له تعالى وحده.

وهذه نفحة أخرى منضافه إلى النفحة الأولى وهي شهر صيام شهر رمضان.

(١) صحيح البخاري: ٢٠١٤

فضل ليلة القدر: وإذا أضفت إليها الثالثة، ومن نص الحديث أيضا،
ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومنه لفإن
هذه منظومة حديث يستأهل منه أن يستقبل شهر رمضان بهاتك حفاوة.
وإذ ماذا يريد امرئ مسلم، وإلا أن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه،
طيلة عام كامل؟

غير أننا ونحن نصول ونجول بين ثنايا وألفاظ نبينا محمد صلى الله
عليه وسلم نستشرف هذا العطاء الرباني، وهذا اللطف الإلهي.
ولما قد فرض ربك عليك شهرا واحدا في السنة كلها، وفرض عليك
صيامه.

وأنت ترى كم هو فضل قد سيق إليك سوقا، وحين يخرج العبد المسلم
من رمضان طاهرا مطهرا من ذنوبه ودينه وإثمه وخطائه.

فكان هذا حريا باستقبال باهر لهذا الشهر الكريم، ورضا به أيضا.
غير أن الثمن وإن كان غاليا عاليا، وإلا أنه سهل، وحين تواطأت
القلوب على ذلك الأمر الأهم. وهو ذلك إيمانا واحتسابا، فيستجمع العبد
قواه كلها.

وليتحصل هذا الإيمان، وهذا التصديق، وهذا الرضا بربه ربا وبإسلامه
دينا وبنبية محمد صلى الله عليه وسلم ورسوله، ويطرح كل منهج غير منهج
ربه عز وجل، ونهيا تركا، وأمرنا فعلا.

ويقدم بين يدي ربه هذا الاستعداد، وهذا الإيمان، وهذا الاحتساب، وهذا التوحيد الذي هو حق رب العبيد على أولاء العبيد.

فليس يقدم من هدى على منهج ربه أمرا أو نهيا، لا في دقيق ولا في جليل، ولا في كثير ولا في قليل.

إنه تَضَامَن هذه الأركان الخمسة، في إظهار ذل وعبودية حقيقية لهذا الرب العظيم المتعال.

بلاغة الاسم الموصول: الذين اسم موصول، يدخل فيه النساء والرجال، إذا أطلق عم جنس الرجال وكنس الرجال بالخطاب.

وها قد أشعرك به إلف بيانه تعالى، وعلاوة على ما لهذا الاسم الموصول من تقرير واهتمام أيضا. ويكأن ربك الرحمن عز وجل قد أشعرك باهتمامه بك، وحين قد أولاك بذكر الاسم الموصول ها هنا.

ولأنك أنت المخاطب بذلكم الإكرام، وحين قد ربت النص على صدرك، وقال لك: إذا لم تكن مطيقا صوما، فقد أتحنفك فطرا!

غير أنك تفديه طعام مسكين؛ وجبرا لخاطر المساكين، وافتداء لصومك هذا.

وحين قد أبجنا وأجزنا لك الإفطار، فدل على كم هي أهمية الصيام، وحين كان لابد له من فداء وثمر، ولما كان في متناول الأيدي، وليس ثمة ما يعسر على مفطر، وحين قد تحققت فيه هذه الإطاعة.

وما بالك بقول هو نصف صاع؛ طعمة للمساكين، وجبرا لهم، وافتداء لصومك. فقد حصلت ميزتين عظيمتين، هما فداؤك لصومك، وجبرك لمساكين.

ويكأنك أمام جناحي طائر؛ ليطير مرفرفا في عناء السماء، وحين قد كنت هكذا مهتما بك، وبصيامك، وبفطرك، وافتدائك من ربك.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾: وعلى هذا هو الإلزام الإلهي من الله ذي العزة والجبروت. والكبرياء، والأمر، والنهي، وحده.

وحين لزم أن تكون هناك سلطات عليا، يكون منها وحدها هذا الأمر، وهذا النهي، وليست تشاركه فيه أية سلطات أخرى ولأنها مقودة لا قائمة، في ساحتي الأمر والنهي.

وحين تعلم النفوس أن أمرها هو ربها، وإنما تستجيش فضلا، وتستحضر إذعانا وقبولا وانقيادا واستسلاما ورضا (ويسلموا تسليما).

فتسابق إلى خيرها، وتسارع إلى فوزها.

﴿يُطِيقُونَهُ﴾: والهاء راجعة إلى هذا الصوم، من لدن رب العزة والجلال؛ تقريرا بهذا الصوم، واهتماما به.

وكما قد أتحفت أيضا أنت بذكر الاسم الموصول (الذين).

فاستجمعت الآية اهتماما بالصائم والصوم معا.

وهذا فضل من الله ورحمة، وجود منه تعالى، وفضل كريم، نسبحه كثيرا، ونذكره كثيرا، على ذلكم الاهتمام بنا، وبصومنا، وحين قد تفرد وحده ببيانه.

وجاء اللفظ عاما، وكما أنف من رجال أو نساء، وحين كان قد أتعبهم الصوم، أو أنه وجد فيه رائحة مشقة.

غير أن هذه الإطاقة يخرج منها المسافر والمريض؛ دلالة قول رب العزة والجلال، في أول الآيه: (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر)، يقضي ما أفطره تماما.

من تلزمه الفدية: ومنه جاء الخلاف بين أهل العلم، حول حول هذه الفدية، ومن تلزم؟ وهل تدخل فيها الحامل والمرضع؟ وعلى اعتبار أنه لم يرد في شأنهما حكم خاص، كما قد ورد الدليل في المريض والمسافر. ولما كان قد بين أنهما يقضيان، ومما أنف.

وكما قلت فإن الخلاف دائر، ويكأن الراجح أن الحامل والمرضع تفطران وتقضيان؛ ولأن الحديث قد نص على أنه إذا خافتا الموضع والحامل على ولديهما.

حقوق الطفل في الإسلام: فكان هذا هو حق الطفل، في هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد. إذا خافت الأم الحانية الرقيقة اللطيفة الشفيقة الرقاقة، بعواطفها السيالة، على ولدها، فقد أجاز لها ربها، وجبرا بخاظرها، أن تفطر.

ليس لها وحدها فحسب، وإنما نشتم منه رائحة إطاقتها للصوم،
وتحملها.

إن هذه حيثيه عظيمة جليلة القدر والشأن.

إذا خافت على ولدها، فيقدر حنانها، وليست تتأخذ عليه، بل يجبر
خاطرهما؛ ومن أجله.

وأكرر: وأي حقوق للطفل في دين إلا كهكذا الدين الغسلام الحنيف
الخالد؟

وحينما جعلت شفقته أم على ولدها مبررا لإفطارها.

غير أنه قدر الخلاف ومما أنف حول دخولها أو عدم دخولها في
الفدية، ولعدم وجود نص ثابت قطعي ثبوتا ودلالة حوله.

المبحث السادس: من أحكام الصيام

وهذه وقفات أخرى عظيمة الشأن أيضا.

وهو ذلكم الكلام حول الصوم وصوم شهر رمضان، وحين قال رسولنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين^(١).

وهذه إشارة وتقدير لفضل رمضان، ولأنه إذا جاء رمضان أيضا لنا بسهولة ويسره وبركته ونعيمه

في هكذا وكما قد رأيت من هذا الحديث تخصيصا لشهر رمضان ذكرا، دون سائر الشهور.

ويكأنه شهر البركة، ثم وتفتح فيه أبواب الجنة على مصراعيها، كل أبوابها، وليس بابا واحدا.

وأنت تعي وتدري وتوقن أن في الجنة باب، يقال له الريان، لا يدخل منه إلا الصائمون. في هكذا مزية أيضا للصوم والصائمين، واحتفاء بك أيها الصائمون وحين قد ائتمنك ربك على صيام شهر رمضان، فكنت به حق أمين. وها قد فتحت أبواب الجنة كلها، وغلقت أيضا أبواب النار كلها.

(١) صحيح البخاري: ٣٢٧٧

في هكذا فسحة ربانية، وإتاحة الفرصة، لهكذا الراجعين والمنيبين والتائبين، إلى حديقة إسلامهم الغناء، بخيرهم ونفعهم ويسرهم ودفع الضرر والمشقة والعسر عنهم أيضا.

ثم وسلسلت الشياطين، أي: صفدت، ربطت، وغلت هذه الشياطين؛ فتحا لأبواب الخير أمامك أيها العبد الصالح التقي الخفي النقي؛ وكما تقبل على رمضان، بصدرك المنشرح، منفتحا إليه لبك وقلبك.

ويكأنك هكذا في ميسورات وتساهيل ربك عز وجل؛ كيما تنشحن شحنات من الطاقة الخلاقة الخلافة الجذابة، فتؤدي منها ما عداه من شهور، وإذ ليس يكون عملك وقفا على رمضان وحده!

دلالة الاستغراق: ولأنه وبئس من كان لا يعرف ربه إلا في رمضان؛ فرب رمضان عز وجل، هو رب غير رمضان أبدا. وحين ذكر الاسم الموصول وعلى ما ذكرناه فيما قد مضى، وإنما ينضاف إليه ذلكم الاستغراق، أي كل من كان يطيق صيام شهر رمضان، أي يحتمل صيامه، ومن مشقة وعناء.

فإن ربك يدفع عنك ضره، وإن وجد، ويبدلك أيها العبد ويمنحك ربك فضل إفطارك، وبدلا عن صيامك.

غير أنك تفدي عن صومك فتطعمن مسكينا.

وهذه خلاصة هذا المقطع من هذه الآية الكريمة. ومما أنف أيضا.

غير أننا نقف هذه الوقفة على ذلكم الاستغراق الذي قد فهمناه من مجيء الاسم الموصول (الذين) أي أن كل من ثبت في حقه مشق' من

رضاع أو حمل أو نفاس أو شيخ كبير أو أصحاب المهن الشاقة، وإنما جاز لهم الإفطار.

والخلاف وكما أنف حول القضاء أو الفدية، وإلا أنهم قد استثنوا الشيخ الكبير وحين ذهبوا أنه لا قضاء عليه؛ ولأن شيخوخته دائمة، فكانت كالمرض الدائم، الذي يكون به الفدية.

أما الحامل والمرضع والنفساء وأصحاب الاعمال الشاقة، ومن توجيه بعض أهل العلم القائلين بعدم الفدية، وإنما عليهم القضاء؛ ولأنه أمر ليس مستمرا.

يسر الفدية: وهذه الفدية، وحين بلغت من اليسر والتحمل مبلغها أيضا، ويكأنك فقط تختبر وتبتلى أمام قواعد وشرائع وشعائر ربك الرحمن، وإذ هل أنت ذلك الصنف الذي تقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، أم أن هناك صنفا آخر غايتهم الجدل والخصام؟

إن هذا ابتلاء رباني لأداء العبد، وحين يتنزل عليه أمر ربه، وإنما كان قوله: سمعنا وأطعنا.

ذلك أن هذه الفدية، وحين اختلف في مقدارها: صاع أو نصف صاع، أو مد.

ولما كان نصف الصاع تقريبا كيلو ونصف من بر أو أرز والمد تقريبا من (٥٠٠ الى ٦٠٠) جرام. كذلك رز أو قمح أو بر، فإن هذه كلها تدخل في معنى الفديو، وكما أنها تدخل في طاقة المفطر، ومن اليسر بمكان.

وأكرر إن هذا ابتلاء من الله تعالى؛ لاختبار مدى تقديره وتعظيمه لشعائر الله ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

بلاغة التنوين: جاء التنوين في فدية، وجاء رفع طعام!

بلاغة البدل: وحين وقعت على البدلية، ونكرر أن الطعام للمسكين، الذي ثبت في حقه أنه مسكين.

إن هذا الرفع لكلمة (فدية)، وإن هذا الرفع لكلمة (طعام)، أفاد معنى البدلية، تقريراً، وإيضاحاً، وإزالة للإبهام والجهالة، وإدراكاً لعلم عن رب العزة والجلال.

فإنه تعالى لم يدعك دون بيان، ولأنه تعالى قال ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ويجوز فيها أن تكون مضافاً ومضافاً إليه.

هذه الإضافة من تعريف المضاف بالمضاف إليه، وكذا تعريف المضاف إليه بالمضاف، وحين أدى هذا التناوب معنى عظيماً، وأدى تركيباً مهيباً.

ويكأنه لحمه واحدة، ويكأنه لوحة تصويرية واحدة، من البيان والذكر والإيضاح!

وهذا ينضاف إلى جواز القول بأنه على البدل، وجواز هذه الإضافة أيضاً.

ومن تقريرها وإيضاحها، وكما للبدلية، وإنما سابقتها في هذا تعظيم، لكل من المضاف (فدية) والمضاف إليه (طعام).

وينضاف هذا إلى ما أنف ذكره من تعظيم وتقدير وتوقير لشعائر الله تعالى، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

إن ذكر المرض والسفر قبل قوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه)، يمكن أن يدخل في باب ذكر الخاص قبل العام؛ دلالة على أهمية ذلك الخاص، وأنه المرض والسفر، ولما يعينان من مشقة وبذل وطاقة وتحمل.

فكان منه هذا الاختصاص المنبثق من هذا العام وكلمه الذين يطيقونه عامة أيضا في كل من أطاق الصوم ومشقته كحمل أو رضاع أو نفاس أو شيخ كبير أو القائمين بالأعمال الشاقة المضنية.

فعم ذلك الفضل.

وهذا أسلوب أجود وبينما قد تمتع وتميز به قرآن ربنا.

وبدل أن يفصل ويقول الحامل والمرضع وأصحاب المهن والشيخ الكبير فكان سردا وتفصيلا، ربما ربما لم يذكر نوع من الأنواع الجائز لها الفطر، فيستدرك على الله!

والله لا يستدرك عليه، فجاء اللفظ هكذا عاما منسجما؛ وكما تتفتح آفاق اليسر والرحمة أمامنا، ومن هكذا ذكر لهذا المعنى الفضفاض.

ومن قول ربنا (وعلى الذين يطيقونه)؛ ليشمل كافة من أطاق الصيام، ومن مشقة. وإنما جاز له الفطر.

وأنف الذكر أن الكل مثل ما هو حال السفر والمرض وحين يفطر فيقضي، وإلا الشيخ الكبير المسن، فإن شيخوخته وسنه وعجزه دائم فاختلف عن غيره من مرض أو سفر أو حيض أو نفاس أو أو رضاع أو حمل أو أعمال شاقة، فإنها في غالبها أعمال مؤقتة، ومن ثم يرجع العبد بعدها إلى أصل الوجوب، فيقضي عن كل يوم أفطره يوما يصومه. ولقوله تعالى (فعدة من أيام أخر).

المبحث السابع: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

وهذا هو قول ربنا الرحمن عز وجل، وإذ تراه متنفسا، ظلا عليلا، ونسيما وارفا، يأخذك إلى مطالع الإخبات أخذا، ويطلعك على مكامن وأسرار القنوت إطلاعا.

وحيثما كان قول ربك الرحمن، في هكذا استهلال لمضامين اليسر والبركة وإحلالهما قلوب العباد. وكأننا بين خلجاتها هكذا شهر كريم، هو شهر الصوم، شهر رمضان، شهر القرآن، شهر التبيان، شهر الخير واليمن واليسر والعطاء والمن والبذل والرضا من ربنا الرحمن عز وجل.

وبه يكون هذا الشهر شهر النفحات والنعماء والسراء وكشف الضراء.

هنا وقفتان جميلتان بردا وسلاما على قلوب المؤمنين الصائمين:

وأما وقفتنا الأولى، فحول قوله تعالى (فعدة من أيام أخر)، وأما وقفتنا الثانية فحول قوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه).

ومن وجه غير الذي قد أنف ذكره؛ كيما يتبين لنا القرآن العظيم صفحة بادية، ولوحة تصويرية، منه نأخذ زادنا ونستزيد عبقنا ومسكنا.

الوقفة الأولى: وكما قد أنف، فإن أولاء الذين حق لهم الإفطار، وعلى ما سبق بيانه، وحين كان عليهم أن يقضوا عدة ما أفطروه.

ويكأنه، ولكنه يكون بنفس عدد الأيام التي هي نفس عدد الأيام التي سبق وأن أفطروها.

وفائدة القول ها هنا أننا وحين نفصل أن عبداً جاز له الإفطار شهر رمضان عامه هذا، ويكأن شهر رمضان، وحين قالت المطالع إنه كان تسعة وعشرين يوماً، وقد صامه الناس على هذا النحو، ولما قد أفطره هكذا تسعة وعشرين يوماً، ومن ثم إذا أراد أن يقضي فهل يقضي شهراً كاملاً، وعلى اعتبار أن الشهر يمكن أن يكون تسعة وعشرين أو ثلاثين يوماً، أو أن يقضي تسعة وعشرين يوماً فقط؛ ولأنه قد أفطر تسعة وعشرين يوماً؟

والراجح في هذه المسألة أنه يقضي ما قد أفطره بعدد أيامه قطعاً للنظر عن كونه كان شهراً أو غير ذلك، واتفاقاً مع ظاهر النص: (فعدة من أيام آخر)، ولأن الله تبارك وتعالى، وبهذا التنزيل قد قطع قول كل خطيب، وقول كل قائل، وهو هكذا قوله تعالى (فعدة من أيام آخر).

بل لنا وأمام هذا العبد الذي جاز له أن يفطر، ومما أنف بيانه، ولقوله تعالى (فعدة من أيام آخر).

إن ههنا ملحظاً جميلاً أيما كان الجمال، وأنت إذ تدبر وتنفكر وتعتبر أمام هذه اللوحة التصويرية القرآنية البديعة الزاهية العطرة، وأنت إذ بين حرف الفاء ابتداء وانتهاء: فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر).

هذا الأداء القرآني العظيم، ذو الشأن أوقفك على حيثية عظمى بهية سنية رضية.

وإنك إذ تسارع إلى الخيرات، وليس هنالك من داع إلى عوامل التأجيل والتسويق.

فحيث ما قد جاز لك الإفطار أيها العبد؛ ولظروف أنف ذكرها من سفر أو مرض أو حيض أو نفاس أو حمل أو رضاع أو ما شاكل ذلك، ومن الأعمال الشاقة.

وإذ كان عليك المبادرة إلى تصحيح أوضاعك مع ربك تعالى، وبمعنى أنه حين يزول السبب الذي كان من موجهه جاز لك الإفطار فسارع أيها العبد إلى قضاء دينك مع الله تعالى.

وظيفة توكيد فعل الأمر: وعلى جواز التوكيد للفعل الأمر مسألة لغوية أخرى، ومنها فسارع إلى قضاء دينك وتعديله.

فانك لست تعلم ماذا سوف يحل بك، وهذا الذي جعل أئمة الفقه والبيان والتبيان عن ربنا الرحمن أن يقولوا بأفضلية هذا القضاء حال زوال سبب الإفطار.

وبمعنى آخر لا يحسن في حس مسلم أن يأتي رمضان آخر، وقد كنت مثقلاً بدين القضاء.

ويكأنك تقول وبلسان الحال: اضمنوا ما يعرض لي!

وأنت أيها العبد الصالح، لست تعلم، ولست تدرك، ولست تحيط، بل يغيب عنك، ما يعرض لك. وإن حسن الأدب مع ربك الرحمن، وحين قد أجاز لك الإفطار في رمضان.

وكان من حسن تعاملك وتقواك ومراقبتك لربك ومولاك أن تسارع إلى قضاء ما قد فاتك من صيام.

وهذه حيثية، وهذا حرف الفاء التعقيبي، ومما أنف بيانه.

ومنه أفضلية المسارعة في القضاء.

وإلا أن له وجهاً بلغياً حسناً، أردت تذكارك به، وإيقافك عليه.

فإنه أدى هذا الأداء ويكأنه لحمه واحدة منسجمة مترابطة متضامة متراسة.

وحين لم يسعفك حرف العطف الفاء في إيجاد ولو مساحة ضاقت أو اتسعت بين كونك قد أفطرت؛ ولموجب ومسوغ وسبب شرعي، وبين أنه قد وجب عليك القضاء مسارعة ومسابقة إلى إرضاء ربك الرحمن. وحين قد ألفت ذلك واعتبرته ووجدته واستأنسته من إيجاد حرف الفاء.

من أخلاق الصائمين

ومما به من نفحات ساغ للعبيد أن يأخذوه ماخذ جد لا هزلن ولأنه جعل من مفطرات الصائم، ولأنه جعل شهر رمضان، بل ومن ما قال عنه صلى الله عليه وسلم: من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه^(١).

ومنه دل على خشية العبد أن يضيع صومه بين خلجات اللهو والعبث، ومن منطوق هذا الحديث.

(١) صحيح البخاري: ١٩٠٣

ويمكن أن يقاس على قول الزور والعمل به غيره من مبطلات أجر الصوم، كغيبية أو نائمة أو لهو أو عبث أو جلوس أو دوران أو طواف أو تحلق أمام حلقات ومسلسلات ليست تفيد بل تضر عقيدة العبد وأخلاقه. فليدبرن عقل وقلب ولب متعلق بربه ومولاه هذه الحقيقة أيضا.

المبحث الثامن: أحكام عمل أهل الأعذار يوم القضاء

وما زال الكلام مستمرا ومستأنفا حول هذه الآية الكريمة الرابعة والثمانين بعد المائة من سورة البقرة.

وفيها من الأحكام الجديرة بهذا الصوم ما قد حكته وبينته تبياناً قرآنياً عظيماً أولاً.

وأهمية للصوم ثانياً.

ومنة من الله تعالى على العبيد ثالثاً.

وإنما كانت هذه بالنفس، حيث لم يتركنا ربنا هملاً، بل بين لنا وسناً لنا؛ ورحمة بنا.

ولكيلا نعمل عقولنا؛ ولأن عقولنا غير محيطة، بل قاصرة عن إحاطة، ولو شيئاً واحداً.

ونضيف بياناً آخر متعلقاً بقوله تعالى ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: ولأن السياق جاء في مناسبة الصيام، فدل على أن هذه هي تلكم أيام القضاء، لما قد أفطره العبد، أو أفطرته الأمة، من أيام رمضان.

وحيث ما لا يلتبس والمعنى بهذا الشأن بقوله تعالى مثلاً (فعدتهن)، أي عدة النساء.

وهذا ملحظ قرآني كريم عظيم الشأن.

وملحظ هام أيضاً جدير بالإخبارات والقنوت، وحين تصويره واعتباره وقراءته.

ولما كان اليوم في رمضان له شأن عظيم؛ ولأن رمضان هو ذلكم الشهر الذي لله تبارك وتعالى فيه في كل ليلة من ليالي هذا الشهر الكريم عتقاء من النار، وإلا أن هذه الميزة، ولما لم تنسحب على غيره من الشهور الآخر، فدل ذلك على فضله، ومنه كانت هذه الأيام الآخر أيام قضاء وحسب. وبمعنى أن العبد وحين يفطر في هذه الأيام مرة أخرى عامداً أو غير عامد، وإنما عليه القضاء وحسب.

ما حكم الجماع في يوم أفطره الصائم: وحتى إنهم قالوا: ولو جامع عبد أهله في نهار أيام من رمضان كان قد أفطرها، فإنما تجب عليه كفارة الجماع في رمضان.

وهذا ملحظ نستحضره بيانا لقيمة شهر رمضان وشأنه وعظمته وقدره، عند ربنا الرحمن سبحانه وتعالى.

غير أنه يحسن التفرقة بين جماع في يوم أفطره من غير عذر وهذا الذي تكون منه الكفارة، وبين جماع في يوم افطره لعذر وبه لا كفارة عليه.

هل يلزم فيها الترتيب: إن هذه العدة من أيام الإفطار وحين قضائها، وهل يلزم فيها الترتيب أم أن العبد أمير نفسه فيها؟

والراجح هو أنها ليست على الترتيب، والمهم أن تقضى، ومن الأفضل أن تقضى وقبل رمضان التالي.

وانظر حرص أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها، زوج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، هذه المبرأة بقرآن قد تنزل، ويتلى إلى يوم

الدين، وحين كان من شأنها ذكرها في أيام قضائها ما عليه معاشر النساء من سنن الله فيهن من حيضهن.

وما قد أخبرت أنها يكون عليها القضاء، فما تستطيعه إلا في شعبان.

وبه دل على أنه يجوز أن تقضى هذه الأيام التي أفطرت في رمضان طوال العام، وأفضلية أن تقضى، وقبل مجيء رمضان التالي؛ ولقول عائشة هذا: ما كنت أقضي أو أستطيع أن أقضي ما عليّ إلا في شعبان.

واسمع قولها، وتسببها، وتعليلها؛ شغلا برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقفة هنية: وأن نعم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنه كان الشغل به أمرا رشدا.

غير أنه ينظر فيه، ومن جهة أخرى، على عظم حق الزوج على زوجته، فإن عائشة أم المؤمنين رضي الله تبارك وتعالى عنها، وإنما لحق الزوج أيضا كانت تؤخر قضاء ما عليها من صيام؛ ولأنها مشغولة بأمر زوجها.

وإنما ينظر من هكذا جانب إلى أنه وليس حسب أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما ينظر إليه ومن جهة أنه زوج وأن الزوج عند زوجته بمكان، والعكس أيضا ف: خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه^(١).

إن هذه وقفة أردت بيانها؛ لعظم حق الزوج على زوجته، طاعة لربها، وعبادة لخالقها.

(١) صحيح الترمذي الألباني: ٣٨٩٥

وإن العبد أو الأمة، وحين يفعل أمرا، وإنما يستصحب معه هذه النية الحسنة.

ويكأنه يتعبد بها ربه عز وجل، فيؤجر؛ ولأن ربك قال ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

إن كل ما يفعله المسلم، ومن خير، وإنما يكون لربه تعالى؛ ليؤجر عليه، وسائر ما يتركه المسلم، ومن شر أيضا؛ ولأن ربنا الرحمن حد حدودا فلا تنتهكوها، هكذا أمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما كان هدينا، وإن ليس من خيالات عقول وأذهان.

وبه تقرر أن العبد في أمره ونهيه، وحيثما قد نوى تعبدا لربه، أن كان زوجا مع زوجته، تخلقا حسنا وتادبا حميدا، فإن له أجره، و ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وإن الزوجة وحين تفعل فعلا أو تنتهي عن فعل، وإنما كان ذلك أيضا، وهي مستصحبه نيتها لربها، وإن الله تعالى لا يضيع عليها أجرها، بل يحفظه لها، ويثيبها.

وهذا حديث: سمعت عائشة رضي الله عنها، تقول: كان يكون علي الصوم من رمضان، فما أستطيع أن أقضي إلا في شعبان. قال يحيى: الشغل من النبي أو بالنبي صلى الله عليه وسلم^(١).

(١) صحيح البخاري: ١٩٥٠

المبحث التاسع: للصائم فرحتان

نحن ما زلنا بين يدي هذه الآية الرابعة والثمانين بعد المائة من سورة البقرة.

وإذ نستهل منها، وإذ نستشرف منها، وإذ نتذوق منها، ونستيسر منها، ونستأهل منها، الفأل الحسن. وحين يسر علينا ربنا ومولانا الله.

وهذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فيما روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى وغيره: كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها، إلى سبع مائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم؛ فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي. للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. ولخلاف فيه أطيب عند الله من ريح المسك^(١).

وهذا التقديم والتأخير في الحديث، وهو ذلكم البلاغة أيضا، وعن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وحين قدم (للصائم)؛ استشرافا، وتبشرة، وبشرى، وتفرحة وتيسيرا، وإيناسا، لك أيها الصائم، واهتماما بك، وتقريراً لصومك.

وإذ كان يمكن أن يقول صلى الله عليه وسلم: فرحتان للصائم، ويمشي الكلام، ويكون جميلا، وباعتبار أن التفريح أمر محمود، تألفه النفوس.

ولكنه قدم الجار والمجرور (للصائم)؛ اعتناء بك أيها الصائم، وفرحة بك، وإيناسا لك، وتشويقا لك.

(١) صحيح مسلم: ١١٥١

للصائم، ما للصائم؟ انتظار الفرج، وانتظار اليسر، وانتظار الفرح،
وانتظار الأُنس، من هكذا سياق بلاغي نبوي، نفيد منه أمرنا للصائم
فرحتان: فرحة يوم فطره، ويكرر صلى الله عليه وسلم للصائم فرحتان:
فرحة يوم فطره وفرحة يوم لقاء ربه تعالى.

ويكأنك تعيش هذا الفرح، من بين يدي وثنائيا كلام رسولك ونبيك
محمد صلى الله عليه وسلم؛ كيما تستشرف هذا الفرح، وتأنس به أيضا.
وهو أمر مشاهد وملاحظ، فإن يوم فطره، أي يوم أن يفطر بعد
غروب شمس يومه، أو يوم عيد فطره، أو كلاهما.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل، ويكأنك تستشعر
أيضا أن الفرح جاء في سياقاته الثلاث نكرة غير معرف بال؛ برهان سعة
هذا الفرح، وامتداده، تعبق منه مسك الصيام، وتطيب منه طيب هذه
الفرحة، وأنت إذ تصوم لربك الرحمن.

وقفوا عند قوله تعالى ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: وقالوا: ألا كان يمكن
أن يقول فعدة من الأيام الأخرى، وهذا سائغ.

وإلا أن مجيء اللفظ هكذا (أيام أخر)، وبما قد حواه من تخفيف
وتسهيل وجريان لللفظ منسابا سيالا هديرا عبقا ليس فيه الثقل الذي
نشتمه ونجده ونراه ونلفاه، وفيما لو كان اللفظ قد جاء بالأخرى!

وهذه من وقفات كتابنا، ومن حلاوه قرآننا، ذلكم التنزيل الرباني
الكريم العظيم.

المبحث العاشر: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

وإذ كان ختام آيتنا وحده، ميثاقا عظيما، وميثاق خير.

وحين يستهلها الذكر الحكيم بهكذا إشاعة لأعمال الخير، واستنهاضا للقلوب، واستدعاء لطاقات الخير والبذل، التي أودعها ربنا الرحمن أفئدة وقلوب عباده الأصفياء.

وأنت إذ تستاهل وتستطلع وتستشرف هذا الخير، ومن قول ربنا الرحمن (فمن تطوع خيرا فهو خير له)، وهكذا وكما أنف في إشاعة الخير والبذل، وتقدمة لهذا الخير، بلفظ التطوع! ذلك أن ديننا قائم والحق أقول على أمر ونهي.

غير أننا نستطلع هذا الخير، والتطوع بهذا الخير، ونحن يقول ربنا الرحمن لنا هذا في كتابه العظيم.

ونكرر ومن قول ربنا تعالى، فمن تطوع خيرا فهو خير له؛ استدعاء لطاقات أودعها ربنا تعالى، قلوب أصفياه من خلقه، وأن يتطوعوا.

ذلك أن هذا التطوع، ومن حيث يجد العبد المؤمن سوقا داخلها إليه أي إلى ذلك التطوع، الذي هو عمل الخير، ودون ما إلزام للنفس، بالقيام به.

وأنت إذ تستحضر قول ربك الرحمن عز وجل: ولا يزال عبدي يتقرب..ز،

فإن هكذا هو نوع تطوع.

وكما أن التطوع هو نوع نفل.

فهذه هي شريعة ربك الرحمن، وأن يجد العبد من نفسه محبة،
للتنفل، والتطوع، ودون ما سابق إلزام له على ذلك؛ تمهيدا للنفس، وتوطئة،
أن تكون باذلة، ولو بشق تمرّة.

وكما جاء في حديث نبينا صلى الله عليه وسلم: من تصدق بعدل تمرّة
من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربّيها
لصاحبه، كما يربّي أحدكم فلهو، حتى تكون مثل الجبل^(١).

فسوق التطوع من هذا الحديث القدسي العظيم سبب لنيل محبة ربك
الرحمن وهذه واحدة.

وأما الثانية: (فمن تطوع خيرا)، وحين جاء الذكر الحكيم، وهذه
من المعاني الجياشة، التي يفيض بها شرعنا ومنهجنا وسبيلنا وقرآننا،
وحين كان تطوع ليس سببا في جلب الخير للعبد بل هو الخير نفسه!
وهذه أيضا من المعاني الرقاقة العالية السامية في ديننا.

وحين تستشرف هذا المعنى، ويكأنك وحين تطوع، وإنما كان تطوعا
عن ذات سوق داخلي، ودونما إلزام من قرآن أو سنة!

ويكأنك قد حزت الخير كله، ومن هذا المنطوق القرآني الكريم العظيم.

(١) صحيح البخاري: ١٤١٠

وأنت إذ ترى وأنت إذ تطوع خيرا، وكما قلت، فليس كان ذلك سببا
لجلب خير لك وحسب، بل هو الخير نفسه!

ومنه كان الجزاء خيرا أيضا.

بلاغة مجيء كلمة ﴿ خَيْرًا - خَيْرٌ ﴾ نكرة: وحينما يأتي هذا الخير
نكرة، في هكذا جملة شرطية في ركنها الأول، من بعد أداته. ثم يكون الجواب
(فهو خير)، ويكأنك لا يضيع أجرك عند بارئك.

فإن تطوعت خيرا فجزاؤك أيضا خير.

وهذه حيثية عظيمة الشأن.

وأنت رأيت امرا عجباً! وحينما جاءت جملة فعل الشرط فعلية (فمن
تطوع خيرا)؛ لتجتمع لديك هالة الاستمرار في أدائك الخير، والثبات على
إجرائك الخير.

فحينما تفعل خيرا يكون دواما من ربك الرحمن لك فيضا يغمرك
غمرا ومن هذا الخير الذي قد جاء نكرة غير محددة.

ذلك أن فضل الله واسع، فيأتي هكذا نكرة؛ تعظيما واتساعا وتضخما
لمآلاته التي يغمرك بك ربها غمرا، وهذه واحدة.

وحين يأتي (فمن تطوع خيرا فهو خير له)، في هكذا تعقيب لمسناه
وعبقناه واستلهمناه من هكذا حرف العطف الفاء التعقيبية أول الجملة
وختامها.

ومنه يستشعر المؤمن أن فضل الله عز وجل عليه، وحين يصبر عليه فضلا، وجزاؤه وحسابه ويكأنه ليست تمر فترة من الزمن يمكن أن تحسب، وحين يرد إليك ربك الخير.

فأنت إذ تطوع الآن، فالآن تجزى خيرا!

وهذه حقيقته المعية اردت الوقوف أمامها.

ولست أريد إلا أن أعمم الخير.

غير أن ارتباطه بالآية قريب، ليس بعيدا.

وحين ذكروا أنه يمكن للمفطر ومن سبب كسفر أو مرض أو شيخ أو حائض أو نفساء أو حامل أو مريض أو ما شابه ذلك، ومما أنف ذكرهز

فمن تطوع زيادة على إطعام المسكين إطعام مسكين آخر فهو خير له.

وهذا ليس يخرج عن عموم لفظ التطوع؛ وربطاً بأجزاء الآية بعضها بعضا.

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: وأنت قد رأيت، وأنت تصوم، وحين جاءت هكذا على المصدر المؤول، (وأن تصوموا)، هكذا في جملة جملة اسمية استعويض عنها بالجملة الفعلية ومن المصدر المؤول، أي: وصيامكم خير لكم.

وحين كان ذلك من قدرة.

وهذا استدعاء لطاقت النفس بينها وبين ربها وخالقها.

وحين كانت تعلم من نفسها أنها يمكنها ان تصوم، وبلا حرج أو مشقة أو عسر، فذلك خير لها.

وهذا استدعاء لهذه الحقيقة الإيمانية الضبطة التي يحتفظ بها عبد مسلم يخاطبه ربه بها.

وحين يخاطب الله تعالى قلبا (وأن تصوموا خير لكم)، وهذا استشراف للخير كله، وليست أسبابه وحسب، أي: من كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر.

المبحث الحادي عشر: مسألة النسخ

وقفوا عند هذه الآية موقفين: موقف النسخ، وموقف عدم النسخ.

موقف النسخ: وقال القائلون بالنسخ إن هذه الآية، وحين قال ربنا ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، أي: يجدون منه مشقة وعسرا وتحملا، وهو من بذل الطاقة فوق القدرة، وإنما قد نسخ ذلك، ويقول رب العزه والجلال ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وجاء هذا النسخ عن صحابين كريمين هما سلامة بن الأكوع وعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

موقف عدم النسخ: والقول بعدم النسخ جاء عن الإمام الحبر الترجمان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما.

وحاصل الأمر أنه، وكما قال ابن عباس فإن هذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي خاصة بالشيخ أو الشيخه الذين لا يستطيعان الصوم، وأنهما لهما الفطر، وعليهما الفداء، ويظل الحكم ساريا عاما فيما خلا ذلك من مريض أو مسافر أو حامل أو مرضع أو نفساء أو ما شابه ذلك ومما أنف بيانه.

إلا أننا نقول وبالله التوفيق: إن مسألة النسخ مرفوعة ها هنا وبمعناه الحديث؛ ولأن العرب كانوا يطلقون على مثل هذه الأحكام الاستثناء. ومما جرى بيانه يوما وحين قلنا: فمن كان مريضا أو على سفر، إنه قدم الخاص على العام، وهو قوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه).

ففضيه النسخ بهذا الاسم، وبهذا الاصطلاح، لم تكن معروفة عند الأولين.

ومنه يحمل على ذلك قول سلامة بن الأكوع وعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما

فلا منافاة بين قولهما، وقول الإمام الحبر الترجمان ابن عباس.

قيام ديننا على الخير: إن أحكام ديننا قائمة على الخير. فأنتم تصومون، وحينما قد استطعتم لذلك قدرة. فهو خير لكم؛ وذلك رفعا لشأن الصوم؛ ولأنه المقصود من هذا الذكر. وهذا البيان من **بلاغة النظم**: وجاءت الجملة الشرطية (إن كنتم تعلمون)، هكذا بذكر أسلوب الشرط من أدواته وفعله، وخلا النظم عن جوابه!

وهذه ايضا من طلاقات وبلاغة قرآنا أي إن كنتم تعلمون فضل صيامكم دنياكم وأخراكم وأجره وفرحته يوم فطركم ويوم لقاء ربكم!

فأبهم النص جواب الشرط علما به، وبحثا عنه!

ولنعمل قلوبنا وأفهامنا وعقولنا وأذهاننا باستنباط جواهره وذخائره واصدافه، وما أعظم وما أكثر جواهر قرآنا!

الفصل الثالث:

تفسير قوله تعالى

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفيه سبعة مباحث

المبحث الأول: احتفاء القرآن بشهر رمضان

هذه هي الآية الخامسة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة، وهي بهذا الاحتفاء، وهذا الاحتفال بشهر رمضان.

وذلك على هذا الاحتفاء بداية الآية به، وبقطع النظر عن وجه إعرابه، وعمّا إذا كان خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: هو شهر رمضان، أو غيره، فالهم أنه جاء القرآن مستهلاً به.

وهذا الاستهلال نفهم منه، ونشرح منه، هكذا حفاوة كتاب ربنا، وحفاوة ربنا عز وجل أيضاً، بهذا الشهر الكريم، شهر رمضان. وهذا أولاً.

وأما ثانياً: فهي تلك الإضافة، ومن مجيء ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، هذا التركيب الإضافي، يشي بهكذا ضخامة، وتكبير، وتعظيم، وتقدير، وهكذا

توجيه لنا- معاشر البشر، المؤمنين، المسلمين- في مشارق الأرض، ومغاربها، وأولنا، وآخرنا، وإنسنا، وجننا، أن نعي هكذا الاهتمام بهذا الشهر.

ولما قد لفت إليه القرآن الكريم نظرنا، ويكأن ربك ليقول لك: ها نحن قد احتفينا، واحتفلنا، بشهر رمضان! فأرنا منك- عبدنا- احتفاء واحتفالا أيضا!

وإن قلت: هو هذا التنزيل، وهو هذا الاستهلال وحده، وما بالك، ولما يثنى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، فكأن هذا الشهر، قد كان مباركا، ومن اختيار رب العزة والجلال، ان يتنزل فيه قرآنه في شهر رمضان؟!

وأعود، وأكرر، ولو لم يكن في التنزيل إلا هذه الإضافة، شهر مضاف، ورمضان مضاف إليه لكفى؛ ولان هكذا التركيب الإضافي وحده، ولما كان من معانيه، وهو ذلكم التعظيم، والتقدير، والتضخيم، والتكبير، لهكذا المضاف، ولهكذا المضاف إليه أيضا.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾: وإن كان هذا الشهر وحين أسمى الله عز وجل هذا الشهر، بهذا الاسم، رمضان، أو غيره؛ ولقوله تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]. شهرا، أشهر، شهرا، وحين جاء من هكذا شهرة، ويكأنه ليس به جهالة أبدا.

وهذا هو مقتضى القول بأنه شهر؛ وحتى نقف نحن على حقيقة هذا
الاشتجار، فنعطيه حقه، من البحث، والتتقيب، ومما نحن بين يديه الآن،
ومن تنزيل القرآن في شهر رمضان.

ومن لطائف الذكر والبيان، وحين كان الإمام مجاهد بن جبر رضي الله
تبارك وتعالى عنه، وأرضاه، ورحمه مولاه، وسائر العباد، يرى خشية، وحين
يقرأ هذه الآية، ويقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، أي: شهر الله! فأسمى رمضان
اسما من أسماء الله تبارك وتعالى.

والواقع أن السياق، ربما لم يحالفه، ولكنه هكذا قال، وهو أعلم منا،
ومن غيرنا، بكلام ربنا تعالى؛ ولأن هذا الشهر، ولما أضيف رمضان إلى شهر،
فدل على أنه هو ذلكم الشهر، عِدَّةً، والمسمى بـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾.

والقول بأنه اسم من أسماء الله تعالى الحسنی، يحتاج إلى دليل آخر؛
يعضده، ويقويه.

أصل تسمية رمضان

ومن أين جاءت تسمية كلمة رمضان؟

قالوا إن رمضان مشتق من الحر الشديد، وكما أسموا شهر ذي
الحجة؛ ولأنه يحج فيه إلى بيت الله الحرام، ولأنهم أسموا ربيع الأول، وربيع
الثاني؛ ومن كونهما شهري تربع الأجواء، وتتنسم المناخات، وتعلل
الطقوس.

غير أن الوقفة المليحة أيضا، أن هذا الشهر العلم على الاسم الموصول الذي جاء بعده، وفيه أيضا من الحفاوة، والتعظيم، والتقدير، لهذا الشهر، ما إذا انضاف إلى التركيب الإضافي الأول، لَتَخَرَّجَ بهذا تكبير، وتعظيم، وتضخيم آخر، أضافه إليك الاسم الموصول (الذي)، وكل هذه الحفاوة، وكل هذا الاحتفاء، وكل هذا الاحتفال، ولما يكون من ربك، ومما أنف، ويكأنه يلفت نظرك إلى أن تحتفي به أنت أيضا.

وإذا أضفت إلى ذلك، بركة من بركاته، ولما كان قد أنباك عنها رسول الله، ومصطفاه، نبي الله محمد، صلى الله عليه وسلم، وحين قال لك: إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي مناد كل ليلة: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، والله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة^(١)

هذا يوقفك على هكذا احتفاء أيضا، أو سبب لهذا الاحتفاء، بشهر رمضان.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

(١) صحيح الجامع، الألباني: ٧٥٩

كل هذه الجزئيات التي تلت ذكر شهر رمضان؛ دليل حفاوة كتاب ربنا، بشهر رمضان أيضاً؛ ومنه نؤكد، ونكرر، ونلزم، ونوجب، مما أوجب، وألزم القرآن، حفاوة، واحتفاءً به، فلا يضيعن عبد مناسبتة وشهره، بل يقبل عبد، حصيف، ذكي، ماهر، نشط، ورع، في استهلال هذا الشهر، وانتهاز فرصته؛ كيما يجدد عقداً مع ربه تعالى، وتلك فتوحات ومواسم خير يهبها ربنا، ويمنحها لعباده؛ كيما يتجدد إيمانهم يوماً آخر، فتصير قلوبهم بيضاء ناصعة أبداً، متصلة بربها الرحمن، خاشعة، ملبية، قانتة، مجددة عهداً بالوقوف على أمره، وعلى نهيه، فلا تفعل إلا ما أمر، وتنتهي عما عنه نهى وزجر؛ وكيما كون العبيد حقاً في سلك هذه العبودية، لله تعالى ربهم الحق.

وإذ نستأهل من هذه الآية، وإذ نستشرف منها، وإذ نتذوق منها، ونستيسر منها، ونستهل منها الفأل الحسن، وحين يسر علينا ربنا ومولانا الله رب العالمين.

وهذا قول نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيما روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى وغيره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها، إلى سبع مائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم؛ فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي. للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. ولخلاف فيه أطيب عند الله من ريح المسك^(١).

(١) صحيح مسلم: ١١٥١

وهذا التقديم والتأخير في الحديث، وهو تلکم البلاغة أيضا، وعن هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قدم للصائم استشرافا، وتبشرة، وبشرى، وفرحة، وتيسيرا، وإيناسا لك-أيها الصائم- واهتماما بكن وتقريراً لصومكن وكان يمكن أن يقول صلى الله عليه وسلم: فرحتان للصائم، ويمشي الكلام، ويكون جميلا، وباعتبار أن التفريح أمر محمود، تألفه النفوس، ولكنه قدم الجار والمجرور للصائم؛ اعتناء بك- أيها الصائم- وفرحا بك، وإيناسا لك، وتشويقا لك.

ولما كان للصائم، وحين يستشرف تساؤل مقتضاه: ما للصائم؟ انتظار الفرح، وانتظار اليسر، وانتظار الفرح، وانتظار الأُنس، من هكذا سياق بلاغي نبوي، نفيد منه أمرنا.

سر التكرار وبلاغته!

ويكأن تقسيما، أضفى على النص حلاوته، وذوقه، وتأثيره في المشاعر والوجدان أيضا.

ويكرر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: للصائم فرحتان: فرحة يوم فطره، وفرحة يوم لقاء ربه؛ حتى تعيش هذا الفرح من بين يدي، وثنائيا، وحنائيا، كلام رسولك، ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم؛ وكما تستشرف هذا الفرح، وتأنس به أيضا.

وهذا أمر مشاهد، وملاحظ.

ويوم فطره أي: يوم أن يفطر بعد غروب شمس يومه، أو يوم عيد فطره، أو كلاهما، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

إن الفرح جاء في سياقاته الثلاث نكرة، غير معرف بـأل؛ برهان سعة هذا الفرح، وامتداد جذوره، وسيقانه، وفروعهن وأوراقه، وزهوره، وثماره، تعبق منه مسك الصيام، وتطيب منه طيب هذه الفرحة، وأنت إذ تصوموا لربك الرحمن أياما معدودات.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: وقف قوم عند هذا النظم، وتساءلوا، وقالوا: ألا كان يمكن أن يقول الله تعالى: فعدة من أيام أخرى؟

وهذا سائغ، وهذا مقبول. إلا أن مجيء اللفظ هكذا ﴿أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، فيه تخفيف، هدير، سهل، يسير، عِبْقُ، وهذا الذي نشتمه، ونتنسمه، ونجده، ونراه، ونلفاه، وفيما لو كان اللفظ قد جاء بـ (أخرى).

وهذه من وقفات كتابنا، ومن حلاوة قرآننا. ذلكم التنزيل، الرباني، الكريم، العظيم.

حفاوة القرآن بشهر رمضان

واذ تستهل آيتنا- محل شرف البيان-، -ومما أنف- وتطالعنا بهاكذا حفاوة، بشهر رمضان، وبالقرآن أيضا.

وأنف كلام حول ذلكم، وما زال الكلام مستمرا، وكيفا نحاول علاج هذه الضبطية القرآنية، الرمضانية معا.

وأنت إذ تستحث، وإذ تستطلع، وإذ تستوقف، وتتأمل، حول مجيئها، بهكذا الاسم الموصول، ومما أنف بيان بعض منهن وأسدك نبأ، نافعا، طيبا، زكيا، زاكيا، مباركا فيه، ولما أقول لك: إن وجود الاسم الموصول ﴿الَّذِي﴾ ها هنا؛ له دلالات، وأنف بعضها، ومن هذه الدلالات أيضا هو ذلك عنصر التشويق.

ويكأنك، وحين تقول: جاء محمد الذي؛ وإنك لسوف تنتظر خبرا، من بعد ذكرك الاسم الموصول، (الذي)، ومقتضى ما ينظر بداهة هو: ما به محمد؟

وهذا هو الشأن أيضا في كتاب ربنا تعالى الفرقان.

ومنه هذا، وحين قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ...﴾ فيسعفك القرآن، ودون فاصل زمني يوجب حيرة! بذكر ربك الرحمن، هكذا: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وليس ذلك ومن حسب، بل يزيدك عنه وصفا، سوف يعلق بذهنك، ولما أمكن أن يسأل أحد فيقول: وما وصفه؟ وليسعفك النظم أيضا، ومن ترديد، متناغم، جميل، جليل، فضيل، شميل، وحين كان،

ومن وصف هذا القرآن أنه: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ
وَالْفُرْقَانِ﴾.

ولتزداد، ومن بعد شوقك اطلاعا، واهتماما بهذا الذي اهتم به
القرآن، وهو ذكره للقرآن.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ﴾: وأنف الكلام حول ﴿فِيهِ﴾،
ونزيد الأمر بيانا آخر، وحين قال بعضهم إن ﴿فِيهِ﴾، ها هنا جاءت بمعنى
السببية، أي: أن شهر رمضان، وانما كانت له هذه الحفاوة، وتلك الحلاوة،
وتيكم الطلاوة؛ ولشأن القرآن، ومن سببه.

وإنما أضفى القرآن على هكذا شهر رمضان، حلاوته، وطيبه، ومسكه،
وعبقه؛ ومن رحمة الله تعالى، والتي تتنزل فيه، ولما كان له من كل ليلة عتقاء
من النار.

فعن جابر بن عبد الله: إن الله عند كل فطر عتقاء وذلك في كل ليلة^(١).

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ١٣٤٠

المبحث الثاني: اختصاص تنزل القرآن في شهر رمضان

وأنف ذكر أن القرآن الكريم، وحين قد تنزل في رمضان، وإلا أنه قد خصص هذا التنزيل بليلة القدر، فدل جمعا بين ليلة القدر، وشهر رمضان، أن ليلة القدر في شهر رمضان.

وإذا أضفنا إلى هذا، الحديث الذي أورده الإمام الألباني رحمه الله تعالى، عن واثلة بن الأسقع الليثي أبي فسيلة: **أُنْزِلَتْ صَحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَ أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ لِسِتِّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَ أُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ لثَلَاثِ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَ أُنْزِلَ الزَّبُورُ لثَمَانِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِأَرْبَعٍ وَ عَشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ^(١).**

وفي هذا الحديث اعتماد نفر من أهل العلم، وحين رجح منه أن تكون ليلة القدر، هي ليلة الرابع والعشرين؛ واستنادا إلى هذا الحديث.

التعبير عن القرآن بعلميته

بيد أن لطيفة جميلة، عجيبة، حلوة، مدهشة، مبهرة، نقف عليها، نتطلع منها، نتعقب منها، مسكها، وطيبها، وعنبرها، وإن شئت فقل جميع الأطايب، ولأنه قد عبر بالقرآن ههنا، وهذا اسم العلم للقرآن، وإن لم يعبر

(١) السلسلة الصحيحة الألباني: ١٥٧٥.

عن القرآن، بغير هذا الاسم، كقوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤٤].

وانما في بعض المضامين، والمواطن، والمواضع، والمواقف، لزم البيان بأصل الشيء، والعلم عليه، كأن نقول جاء محمد، أو يمكن أن نستعيض عن محمد بما قد اشتهر به، وحيث كان يعبر عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين، ولكنه ومن حيث هذا كان وصفا، وإلا أنه لزم في بعض المواطن، والمواضع، أن يذكر بعلميته (محمد)؛ نفيا للجهالة، وإتيانا بكل علمية، ومعرفة فيه.

ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۚ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾: هنا ما يصلح أن نقول: وما الصادق الأمين. إذ لابد من ذكر العلم؛ حتى لا يترك لا يترك مجال لغير أن يقول: وأنا الصادق الأمين! -البعيد- هنا كهنا ومرة أخرى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۚ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

هل لفظ القرآن مشتق أو جامد؟

ووقفوا عند كلمة القرآن، ومنضافا إليها هذه العلمية، وحين نظروا أيضا، هل لفظ القرآن مشتق، أم أنه اسم جامد.

وفائدته، أنه وإذا كان اسما جامدا، فإنه مغاير لكافة الأغيار، وإن كان مشتقا، فيحمل بين جنباته كل ما يمكن أن يحمله كل مشتق على حده، من اصل فعله، وبمعنى أن يتوارد عليه اسم الفاعل، واسم المفعول، واسم التفضيل، وصيغ المبالغة، وصيغ منتهى الجموع، وهذه المشتقات كلها، تبجح الاسم، وتفردته، وتبسطة، وتوسعه، فيكون أمامك على مائدة، منبسطة، مبسوطة بهكذا عوالم، وبهكذا معان، وبها كذا معارف، أنبأك عنها اشتقاقه.

وما معنى القرآن؟

وحين قالوا أيضا: إن القرآن، وعلى أنه مشتق، فمم مشتق؟ من أين جاء؟

وحين قال فريق: إنه جاء من قرن الشيء إلى الشيء، من الاقتران، من الانضمام، ألا تراه قد حوى قصصا، وعبرا، وفكرا، وذكرا، وأمرا، ونهيا، وتاريخا، وحكايات؟ ند أن يجتمع أهل الأدب كلهم، على أن يأتوا بأقصوصة، ومما حكى ربنا الرحمن في قصص أنبيائه.

وحين قال قوم آخرون: إن القرآن من القرائن، من الدلائل، أي أن كل جزء منه قرينة على صحة الجزء الآخر، وهذا معنى جد لطيف، وبارع، وباهر أيضا. فإن قرآن ربنا الرحمن عز وجل يصدق بعضه بعضا، وليس فيه ثمة ما يمكن أن يكون مجالا لمدخل، أو منتحل، أو كاذب، أو مدع، أو منافق، أو مستهتر، أو متكبر، أو جبار، أو عتو، وهكذا انتصب الطريق، وحين كانت كله قرائن ينتصب بعضها لصحة، وحجاج بعض.

وحين قال قوم آخرون: إنه من القرء، وأخذوها من قرء المرأة، أي حيضها، وحين كان معنى الحيض، وهو ذلكم تجمع الدماء في رحمها، ومنه كان القرآن بمعنى الجمع، أي جمع بعضه إلى بعضه، جنبا إلى جنب أيضا؛ ليخرج هكذا، كلاً مؤتلفاً، وكيف يكون: ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، وكيف يكون: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، وكيف يكون: الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، عوجا واحدا، لا أقل، ولا أكثر.

لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا، بل لله الامر جميعا.

من أوجه الإعراب

وهذه الآية الخامسة والثمانون بعد المائة، من سورة البقرة، ولأنك قد رأيتها حافلة، عزيزة، غزيرة، وفيرة، كثيرة، من معانيها، ومن معارفها، ومن

وقفاتها، ومن لطائفها، ومن منحها، ومن مننها، علينا- معاشر البشر
المساكين-.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾: وإنه وعلى قول القائلين بأن قوله تعالى ﴿شَهْرُ
رَمَضَانَ﴾: مبتدأ، وجملة: ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: وحين قال بعض
إنها خبر لهذا المبتدأ، وإنني أقف وقفة ها هنا، بل وقفات، ولعل الله تعالى
يشرح صدرا، وينعم إنعاما، وربى به جدير، ذو مَنٍّ، وفضل، وعطاء واسع.

ولما كان معهودا أن الجملة الإسمية مؤلفة من مبتدأ وخبر، ومن مثل
قولنا: الشجرة مورقة، مبتدأ وخبرن وأدت معناها، بغير دخول الاسم
الموصول، كما نحن أولاء هاهنا، وبحيث إنك إذا وضعت اسما موصولا على
جملة: الشجرة مورقة، للخبطتها، وأعبتها، وصار معناها مخلخلا! ولما كان
الاسم الموصول، هنا أذا أزيل، اختل المعنى، ولا يمكننا إزالته!

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾. مبتدأ، والخبر جملة
فعلية، فمجيء الاسم الموصول ها هنا أحدث ضبطا، وحركة دائبة، وتفاعلا،
صياغته، ومعناه معا، وحين حرك النص حركة دائبة، هادرة، تأخذ بلبك
أخذا، وهذه لفتات قرآنا، وإعجازات فرقاننا؛ ولأنه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

تنبيه غافل وتذكير ناس

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: الله ربنا، وحين أتى بهذا
اللفظ القرآني، في هذا الموضع، أحدث إفاقه لساها، وأوجد ثوراننا، وفوراننا،

وغليانا، وحركة، واضطرابا، وموجا هادرا لغافل، تستحضر هذا المعنى، ومن مجيئه في القرآن الكريم، ويكأنني أدلك على موضع آخر في هذا القرآن العظيم؛ كي تدرك مرماي، وحين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونزل القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وانظر، بهذه الحالة النفسية، المملوءة أسى، وحزنا، وتأثرا، وشفقة، وفيه من إثارة دالات التأوه، والتوجع، والحسرة، والشفقة، ما أنباك عنه هذا السياق القرآني العظيم، ذو الشأن.

وتدرك هذه الشفقة، من هكذا مجيء ياء الإضافة، الملكية، للمتكلم، ولأن أولاء قومي، أنا أحب لهم الخير، وأحب لهم النفع، وحين قد انصرفوا عن هذا القرآن، وهجروه.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: هذا المعنى هو المستحضر ها هنا. هذا القرآن الذي قد هجره قومه، منتصبا حاله، أي هلموا إلى الهدى، وبيانات من الهدى، والفرقان، هذا القرآن.

وحين نتلو هكذا هذه الآيات، التي نحن بين حدائقها الغناء، وبساتينها الفيحاء، وأشجارها الزهراء، الورقاء، حين نقف على هكذا القرآن، نستحضر هذا المعنى، وهذه الشفق، على قوم اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

ولما كان من وصف هذا القرآن ما حكاه لك ربك الرحمن، الديان، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ

الْمَوْتَى ۖ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۖ أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۖ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ [الرعد: ٣١]. ما هو؟ ما الذي يحصل؟ وإذ لو كان فيه لكان هذا القرآن! وحين يكون هذا القرآن تسير به الجبال، وتقطع به الأرض، ويكلم به الموتى، وإذ يخفي النص، ويبهم النظم، عنك جواب الشرط.

وهذه من وقفات القرآن، وإذ لو كان قرآنا هذا وصفه، لكان هذا القرآن، الذي أنزلناه عليك يا محمد صلى الله تعالى عليك وسلم، وآلك، وصحبك، وتابعيك، إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والحال هكذا، وحينما نقرأ هذا القرآن، ويكأنه قد انتصب، هكذا انتصابا؛ ليقف في وجه كل كتاب آخر، يدحره، ويبطله، ويهزمه، ويقصفه؛ ولأنه يعلى ولا يعلى عليه، ولأنه يستحضر عبد هذا المعنى، يسعد، وحين قال الله تعالى ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وفي مواضع آخر ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. و﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. و﴿هُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢] و﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣].

وحين قال الله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. لما يكون هذا كتاب هذا وصفه: هدى، ورحمة،

وشفاء، وبشرى. فهل يمكن بعد ذلك يكون هناك محل لقول الله تعالى على
لسان الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي
اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾؟!

بلاغة حذف المبتدأ

والأصل هو ذكر المبتدأ، ولما كان تقديره: هو شهر رمضان، ويجوز أو يجب حذف المبتدأ، والذي يسمى المسند إليه.

لكن البيان هنا والبلاغة، ولما حذف المبتدأ، ولما كان لهذا المبتدأ وجه الصدارة ذكرنا لا حذفاً.

إذاً وحين يحذف فنبحث عما هو الوجه البلاغي لهذا الحذف.

ومن حيث قد اتفق على أن هذا القرآن معجز.

وإنما كانت أوجه البلاغة، ولاسيما الوجه البلاغي؛ ولأنه تنزل وسط أمة عربية تعرف اللغة وأسرارها.

ومنه لزم أن يكون لهذا الوجه البلاغي اعتبار؛ كيما يلفت الانتباه، ويوقف عنده وقوف المتأمل المستبصر المعتبر لا وقوف المجادل المختبر!

وجه الإيجاز: ومن حيث قلنا بأن المبتدأ قد حذف، ولهذا الحذف أوجه بلاغية كثيرة، ولما كان منها وجه إيجاز، وهو وجه معتبر، ولما كان منها وجه الإيقاف على الأهم من الأمر، وهو ذلكم لفت نظر المستمع والقارئ والمتدبر والمعتبر والمتذكر، إلى أن نقصد شهر رمضان ذكراً، فاستعيض بذكره أولاً؛ وكما يكون ويكأنه بمثابة لوحة إعلانية إعلامية تراها أمامك ولأول وهلة، فتثير منك الاهتمام كله، فلا يصرفن من الذهن شيء!

إن هذا استصحاب للأصل، وأصل المناسبة، وإلا فنحن نصوم رمضان.

ولم شهر رمضان؟ الذي نصوم فيه أفرادا دون غيره، وكما ذكر أهل السير والخبر عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن قوله: قال: جاورت بحراء شهرا^(١). وهذه واحدة.

ومن قول ربنا الرحمن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

ونحن نعلم أن أول ما تنزل من القرآن الكريم هو هذا قول ربنا الرحمن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، فدل أيضا على قيمة شهر رمضان. والذي نقوله ونكرره أننا نصوم رمضان، ويكأنه استصحابا للأصل، وهذا وأن نعم، وإلا أن هذا استصحاب الأصل ليس وحده كافيا، ولهذا جاء النص (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)، ثم يأتي ذكر شهر رمضان، أي: كتب عليكم الصيام في هكذا شهر رمضان.

إغلاق باب البدعة: وإنه إذا لا يكفي أن نستصحب الأصل، وإنما يجب أن يدعم هذا الأصل دليل آخر معتبر، ولو لم يكن ذلك لفتح الباب على مصراعيه، إلى مساله الابتداع في دين الله الاسلام.

فأقف هذا الباب بهذا الدليل القرآني الفصيح الواضح دلالة.

ومن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه.

(١) صحيح مسلم: ١٦١

وأكرر: يلزم مع الاستصحاب دليل من قرآن أو من سنة؛ وكما لا يفتح باب الابتداع.

وهذا الذي أوكدّه، وحين قال قوم إن القرآن قد تنزل في شهر رمضان، ونحن نصوم رمضان تبعاً. نقول: إن استصحاب الأصل وحده ليس كافياً، وإلا مع دليل آخر معضداً وموضحاً.

ويكأن الدليل المنتصب الذي أماننا ومما أنف ذكره من قول ربنا الرحمن من الآية الثالثة والثمانين بعد المائة من سورة البقرة، وكذا التي بعدها (١٨٤)، والتي نحن بصدها (١٨٥).

وإنها- كلها- أدلة مترابطة متعاضدة في تأكيد وجوب الصوم وفي شهر رمضان. مع حديث نبينا صلى الله عليه وسلم: من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه.

المبحث الثالث: ما العلاقة بين الاحتفاء برمضان والاحتفال بالموالد؟!

بطلان الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم: ومما قال به قوم إن صيام رمضان وباعثباره استصحابا لأصل الصيام في شهر رمضان الذي كان يصومه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيه غار حراء، ثم ولقول الله تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن). وجمعا بين هاتين يتضح منه أن القرآن قد تنزل في شهر رمضان في غار حراء؛ ولأن الله تعالى قد أنزل فيه قرآنا على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومن قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق)، ومما أنف بيانه.

واستدلال قوم على أن هذا يجوز منه، الاحتفال بموالد العظماء والرؤساء والقادة والأنبياء والرسل.

إن هذا استدلال ليس ينهض؛ ولأن استصحاب الأصل لابد له من دليل منفرد مستقل، ويكون استصحاب الأصل معه مقويا، ويكون الدليل أيضا معضضا لهكذا استصحاب الأصل.

ولما لم يكن هناك دليل منفرد يدل على الاحتفال بموالد العظماء والقادة والأمراء والرؤساء والأنبياء والرسل، فدل على أنه ليس صوابا.

وفي الجانب الآخر لدينا نحن مع هذا الاستصحاب أوامر تدل على وجوب الصوم منفردا عن هذا الاستصحاب، ولما ينضم إلى الاستصحاب، فكان كل منهما مقويا لأخيه.

ومنه وكما أنف ومن حديث: بني الإسلام على خمس ومنها، وصوم رمضان، فإن هذا دليل مستقل على وجوب الصوم، ومنضافا إلى الاستصحاب الذي أنف وذكرناه.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غبي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين^(١).

إن هذا أمر بالصيام، ومن هذا الحديث، ومن حديث أركان الإسلام، فكانا دليلين مستقلين، ومضافين إلى قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾.

بلاغة الاسم الموصول: وأنف كثير قول وبيان حول ورود ومجيء الاسم الموصول، ويكأن الاسم الموصول بهذا الشكل، وقد تميزت به اللغة العربية.

وهو ما حدا بالقرآن الكريم أن يتنزل فيه الاسم الموصول.

ولكنه على غرار أكثر إعجازا وأوضح دلالة وبيانا وأقوم بلاغة.

ولأنك وحين ترى الاسم الموصول في القرآن العظيم، وإنما ويكأن بك أمام لحمة واحدة منسجمة؛ ومن سبب مجيئه ووجوده والنص عليه.

جملة الصلة: ويكأن الاسم الموصول، وحين كان مفتقرا إلى جملة صلته، ويكأنها قوته وعضدته فكون كلا قد أدى معنى جميلا فضيلا لهكذا شهر رمضان.

(١) صحيح البخاري: ١٩٠٩

هدى للناس: وهو هذا الهدى كله، وليس هدى وحسب، وإنما يهدي إلى الهدى.

دلالة المصدر: ولما كان هو الهدى في نفسه فكان أبلغ دلالة أيضا، وأقوم بيانا؛ ولأن الشيء وإذا كان معبرا عنه بالمصدر هكذا (هدى)، فإنما تفوح منه الرياحين، وتتنسم منه الأجواء.

منه جاء ذكر وصف القرآن بأنه هدى، وليس فقط يهدي إلى الهدى! وهذا الذي به تطمئن القلوب، ومن موجبه تقنت الأبواب، إلى ربنا تبارك وتعالى.

إمكان جمع: وهذا أيضا يقف بنا كيف، وإذ يمكن الجمع بين قوله تعالى (هدى للناس)، أي كل الناس، وبين قوله تعالى (هدى للمتقين).

والأمر جد يسير، فإن الله تبارك وتعالى، وحين قد أنزل هذا القرآن حاديا وهاديا، وإنما ولم يمنع أحدا من الإفادة منه ومن شذاه ومن هداه، وحين تضل فئة أو يشرذ فصيل أو ينفصل قوم، أن يكون (هدى للمتقين)، وحين أعرض عنه أولئك.

وهذا بيان جد مهم للناس، وحين كان القرآن هو الهدى.

وأنف ذكر لطيفة، ذكرها كثير من أهل العلم بتأويل كلام ربنا الرحمن عز وجل؛ جمعا بين هاتين الآيتين.

هذه اللطيفة وأنه هو هدى للمتقين الذين هم الناس، ولأنه ليس يتقي إلا من كان أهلا وأصلح لإطلاق لفظ الناس عليه!

وأما من شرد وبغى وطغى وحاد والتفت وتكبد وهجر، فهذا ليس يسوغ، وأن نضعه في مصاف الناس.

ومنه قوله تعالى (**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**).

ومنه فإن الذي ليس يؤمن ليس يستأهل أن يطلق عليه إنسان.

وبه كان هذا الجمع اللطيف بين هاتين الآيتين.

دلالة الألف المقصورة:

١- وكلمة (هدى)، مختومة هكذا بالألف المقصورة، التي

ينفتح معها الفم، ولا ينغلق. وذلك دلالة إشاعتها.

٢- ودلاله كثرته وغزارته؛ من معانيه وعطائه، وبحيث عبر

عنه بهذه الألف المقصورة- التي ينفتح معها الفم- فكان معناها

العظيم المغزار؛ برهان هذا الانفتاح غير الإنغلاق.

لام الإلصاق: وهذا تعظيم وتقدير لشأن الناس، وحين قد مَنَّ

عليهم ربهم بهذا الاختصاص، أو هذا التعليل، فهذه اللام التي يسمونها

لام الإلصاق أي أنك ملتصق بالهدى، فلا تفرن منه! وإن الهدى ملتصق

بك، فلا تباعدن عنه!

ومنه قوله تبارك وتعالى: يقول الله تعالى: **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي،**

وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتَهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ

ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتَهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَرِّ تَقَرَّبْتَ

إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي
أتيته هرولة (١).

وأما من تنقص واستدبر وهجر، فماذا هو فاعل معه ذلكم
القرآن؟! وحين يفر فراره!

التعليل: هدى للناس؛ أي لأجل الناس.

وهذا منتهى العناية والحفظ والإكلاء والرعاية والعناية، من ربك
بك.

فكن عند هذه الرعاية محلا للاهتمام؛ وبما قد حباك به.

إن هذا المعنى الواسع الفضفاض، من الهدى والرحمة والبيان، ولما
ولما قد جعل الله تبارك وتعالى كتابه، وبما أودع فيه من محكم ومتشابه،
ومن مطلق ومن مقيد، ومن مجمل ومن مفصل، ومن خاص ومن عام،
ومن ناسخ ومنسوخ، ومن أسباب نزول، ومن نزول القرآن، وبحيث كان
من أمامك صفحة مقروءة، ليست طلاسماً، وكما قال ربنا الرحمن (ولقد
يسرنا القرآن للذكر).

ومنه فليس هناك حجاج لأحد أن يقول: أنتم قلتم هدى، ولكنه
ليس بينا لي، فإن هذا القرآن، ومن إعجازه إجمالاً وعموماً، جعل الله
تبارك وتعالى فيه الوضوح والدلالة، وبحيث ربما لم يكن بحاجة إلى

(١) صحيح البخاري: ٧٤٠٥

كثير، أو ليس فيه مما يعضل، ويحول بين معناه وبين قلب امرئ متصل بمولاه.

وهذا هو مقتضى نفي الجهالة عن هذا القرآن، ونفي الطلاس منه.

بل هو قرآن مجيد ميسور معروف معهود، وحين يخلص العبد لربه ويتقيه.

بلاغة عدم التكرار: (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان)، هذا التركيب البلاغي لا يجعل قوما يقفون عندما يريدون أن يأخذوا على القرآن تكرارا.

وليست هنالك من مشكلة؛ ولأنه ولو فرض أنه تكرر، وإنما يعد والحال كذلك، وأنه ومن باب التوكيد.

ومنه يكون تكرار المعنى أيضا، ولكن من ثوب عدم تكرار المبنى! وكما يتضح الإعجاز، ويتبدى الانبهار!

ولأننا نحتاج إلى هذا التكرار، وحين يقال: كثرة الطرق على الأبواب مؤذن بافتتاحها!

ومنه، فليس ثمة عيب بل ميزة، أن يكرر؛ ولتوكيد المعنى وتقديره وإظهار الاهتمام به. وشحذا لهمم العبيد، وإيقافا لهم على هذا الاهتمام، بهذا الهدى، وهذه البينات.

دلالة الفرقان: قالوا وحين جعله ربه ومنزله فارقا بين الحق كله وبين الباطل كله.

والعاقل الرشيد المسدد هو ذلكم الذي يشحذ قواه كلها إلى هذا الحق كله، ويترك ويجانب ويزايل الباطل كله أيضا.

وحين عرف أنه باطل، والهدى هدى الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠].

ومنه فإن غير أمر الله لا يطلق عليه هدى أبدا، ومن فحوى هذا الخطاب الفضيل.

وبه دل على أن غيره أي ما كان من عند غير الله تعالى، فإنه لا يمكننا قبول أنه هدى، بل يوضع في مصاف الباطل، وحين خالف شرعنا، وأمر ربنا، ونهي خالقنا.

المبحث الرابع: (هدى للناس)!

وهنا لطيفة حسن بيانها، ومن حيث إنك تمتلك زادا هكذا شأنه، وهو هذا القرآن المجيد.

ولما كان هدى للناس كل الناس في جميع أنحاء هذه البسيطة.

وإنك تمتلك العزة؛ ولأنك تمتلك ما عليه صلاح البشر - كل البشر - ومذ خلق ربك خليقته، وإلى أن يهلك ربك بريته، (يوم يقوم الناس لرب العالمين).

ومن ثم يمكن القول بأن حاملي لواء الدعوة إلى هذا القرآن العالمي الوجهة، وإنما يملكون منه أيضا عزتهم وأنفتهم وكرامتهم؛ ولأنه يحمل زادا هدى للناس.

وهذا المعنى يستنبط ويستشرف ويستدعى من هذا القول الكريم (هدى للناس)!

ومن ثم يكون حامل يكون لواءه أمرا أو نهيا ذا عزة وأنفة وكرامة، وزحين قد تحلى بهذا القرآن، وبحث صار ويكأنه لباسه ورداؤه ودعوته وصلاحه وفلاحه.

ويزيد هذا المعنى وضوحا، وحين تضع معه جنبا إلى جنب قول ربنا الرحمن عز وجل (كنتم خير أمة أخرجت للناس).

فجعل الله تبارك وتعالى أمة محمد عليه الصلوات والتسليمات والبركات إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

وهذه الخيرية ومما تبوأَتْ به هذه المكانة السامية العالية الرفيعة، واذ كانوا، ويكأنك تكون عزيزاً بدينك وصراطك المستقيم.

ولأن ربك تعالى قد جعلك من خير أمة أخرجت للناس.

ومن موجب أنه قد أسماك وأعلاك، ومن موجب تنزيله لهذا القرآن أجلك!

وكيما يكون صراطاً مستقيماً لكل الناس.

وهذا المعنى الذي يربى صاحبه عزة وشرفاً وكرامة وإباء.

وإذ يعد كل البعد عن الكبر، فإن المسلم متواضع في غير كبر، ذليل لربه تبارك وتعالى، ومن ثم فيؤخذ هذا المأخذ على حقيقته وطريقته، عزة في غير كبر، وذلة في غير ضعف.

أنفة وأن نعم غير انه ليس يتلبس ولو شيئاً من كبر.

فليصمه: وهذه لام الأمر الجازمة الحاسمة القاطعة، ويكأن ربنا الرحمن عز وجل، وحين قد تُلطف تنزيله بنا، ومما أنف ذكر جانب منه، والى موطننا الآن هذا، وإلا أن هذا التلطف ومن معانيه أيضاً، هو هذا الإلزام.

دلالة لام الأمر: ومنه نفيد ونستنبط ونستشرف ونستدعي ضرورة ولي أمر للمسلمين، تكون له سلطة الأمر والتوقيع والنهي والنفاذ.

وكيما يحمل الناس على أمر ربهم ورسولهم صلى الله عليه وسلم؛ ولأن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

وهذه لطيفة تستشرف من بين هذه الحروف وأصواتها.

لزوم سلطة قادرة على الإنفاذ أمراً ونهياً، وإلزام الأمة على صراط ربها المستقيم.

فليست لتحديد عنه يمينة ولا يسرة.

وهذا هو واجب أولي الأمر والنهي، أن يقودوا الناس بتقوى الله عز وجل، وإلى مرضات ربهم تبارك وتعالى؛ كيما يفلح الأمر والمأمور، ويسعد الراعي والرعية.

ولأن هذا النظام الذي تنزل من عند ربنا الرحمن، فيه موجبات السعادة والفوز والهناءة كلها.

وان ربك الرحمن ومن ثم، وحين قال أيضا (فليصمه)، ثم يتبعه بهكذا لطف آخر، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام آخر، وإنما كان من لطفه الواسعه أيضا.

ولأن ربنا الرحمن عز وجل، وحين أنزل شرعه، وإنما جعله على قدر الطاقة والوسع.

وحين قد أنبأنا ربنا نبأ صدقا عدلا، ومما قال ربنا الرحمن تبارك وتعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها).

وهذا من هذا، وحين رخص ربنا الرحمن عز وجل لكل من المسافر والمريض، ومما أنف، وغيرهما من حائض ومرضع وحامل ونفساء وأعمال شاقة، وما شاكله، أن يفطروا، ثم عدة من أيام آخر.

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر: أنت الآن في بستان
العتاء وحديقة المن والفضل كله. فإذا كان الله عز وجل، وحين كان قد ألزم،
ومن بعد هذه الرخصة.

وإذ يريد الله يسرك! فأنت تستجيش منها وتستشرف اليسر، وبدلاً
عن عسر كان يمكنه أن يلاحقك!

فينعطف بك النظم هكذا انعطافة إلى كون آخر هو هذا اليسر كله
ومزايلة العسر كله!

ولكن الله عز وجل يؤكد هذه الحقيقة وحدها، وفي ذكر مستقل؛ بيانا
لهكذا قاعدة من قواعد ديننا

وحيث قالوا: إن المشقة تجلب التيسير، والضرورات تفيد المحظورات،
ولقوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبىكم إبراهيم).

فالملة هي رفع الحرج ودفع المشقة، أي جلب التيسير، وإذا لا ضرر
أي محو العسر كله.

وهكذا أنت في منظومة وبحبوحة طيبة جد طيبة حسنة، كأحسن ما
يكون الحسن والجمال والروعة.

وحيث تعيشها كذا بين أكناف هذا التيسير ودفع التعسير.

من وجوه البلاغة:

١- **المقابلة:** ويكأنني أقول لك: إن هذه مقابلة بين جملتين (يريد الله بكم اليسر)، ويقابلها و يضادها (ولا يريد بكم العسر جملتان)، وهذا أولاً.

٢- **الطباق:** وبين الفعل المضارع (يريد) والفعل المضارع (ولا يريد)، هو هذا الطباق بين كلمتين، فعلين اثنين. وكلمة (اليسر)، وتضادها كلمة (العسر).

وهذه المنظومة من البلاغة، وأنت تعيشها، وحين تظلت بهكذا بيان، وقد أظلتك معانيه!

وكيما تعلم أن قرآن ربك يرفرف عليك بأجنحه السلوان والعطاء والمجد والراحة والتيسير والهناء والسرور والحبور.

ولأنك تعيش هكذا في معان بلاغية سديدة رشيدة كثيفة غزيرة كثيرة، أنبأك عنها ما قد حكيتك لك.

وهكذا كيما تعيش بلاغة قرآن ربك، وهذا جانب نحيطه بالرعاية والولاية.

تقديم وتأخير: وأنت إذ رأيت تقدمة الفعل المضارع (يريد)، ومن جانبين:

الاستمرار الإيجابي: جانب استمرار إرادة الله لك باليسر.

الاستمرار السلبي: وجان عدم استمرار، أو جانب استمرار عدم إرادته تعالى لك بالعسر!

وهذا من واسع رحمة وقفنا عندها أيضا.

يريد الله: كان ممكن يقول النظم: الله يريد؛ كما قال تعالى في سورة النساء (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما)، فتقدم إرادة الله ها هنا فسحة وجمالا وجلالا لعطائه ومنه وفضله تعالى.

وحين قد أحاطتكم رعايته وإكلاءه وعنايته، حتى قدم لفظ الإرادة، ويكأنه تعالى قد أراد بنا اليسر.

فلربما أوقعنا في بعض عسر، ولأنه وحاش لله، فجاء هذا النص، وهذا النظم التالي بهكذا ترتيب وتركيب: يريد ولا يريد؛ دفعا لهكذا تخمين.

ولأنك تتلقى شرعا من رب رحيم لطيف خبير.

وكيف يكون لطف وإلا من هكذا تيسير، وإلا من هكذا رفع التعسير.

المبحث الخامس: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾

هذه آية التكليف، وآية التشريف، وآية التيسير، وآية رفع التعسير، وآية العزة، وآية التقدير، من اللطيف الخبير.

وحيث تضمنت من بين دفاتها ولا أقول دفتيها بل حناياها، ما علمنا، وما سيق من نحر، وجواهر، وفواتح، ودرر من هذه الآية الكريمة. وحين قد كانت من أسباب عزة هذه الأمة وكرامتها وإبائها. وهذا معنى نحث عليه ونلطف به ونذكر به أبدا.

وحين كانت تحملها هذه الأمة بقرآنها مشهورة إياه هدى للعالمين. ويكأنها تشرب أعناقها عزة وكرامة وأنفة، ودون ما قليل أو كثير من كبر؛ ولأن الكبرياء رداء رب العزة والجلال وحده، فمن نازعه فيه عذبه. ويكأننا نستشرف هذه العزة وهذا الإباء أيضا، وحين يطلع فرض واحد هو نبي الله إبراهيم عليه السلام مجابها قومه بأسرهم؛ ولأنه يحمل من بين ثنايا قلبه ونبضاته هو ذلك الإعجاز الذي قد تفرد به عبده؛ ولما كان متصلا بالله مولاه، وحين قال سيدنا ونبي الله إبراهيم عليه السلام (وكيف أخاف ما أشركتم).

كيف أخاف وحدي ما أشركتم كلكم!

إن هذه مجابهة العز، وهذا تفرد القامة، وكيف أخاف أنا، وإذ أحمل (أنا) بين جناباتي دينا وتقوى وصلاحا وفلاحا لي ولكم؟!

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا به عليكم سلطانا فاي الفريقين احق
بالامر ان كنتم تعلمون الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن
وهم مهتدون
تريدون الأمن؟ لا تلبسوا إيمانكم بظلم ولو واحدا، أي بشرك ولو
واحدا.

وهنا يتحقق الأمن والهدى.

المبحث السادس : قطوف البيان من بلاغة القرآن

بلاغة الفاصلة: ونضيف إلى هذه البلاغة تلكم الفاصلة غير المتكلفة، بل كل صور البلاغة التي وردت في هذه الآية، أو في غيرها، من أي القرآن الحكيم، تراها مسوقة، دون تكلف، بل انسيابا ويسرا وتسلسلا وإدراكا، تعمل في القلوب عملها، وتتذوق هذه الألباب ذوقها.

بلاغة ذكر! ولما كان اليسر أمرا محمودا، تألفه النفوس؛ فناسب أن يذكر معه لفظ الجلالة الله!

بلاغة حذف: ولما كان العسر أمرا مذموما تأباه النفوس الأبية؛ فخلي تأدبا من ذكر لفظ الجلالة الله!

وهذه حيثية يوقف عندها أيضا.

وعدم ذكر لفظ الجلالة الله عند قوله (ولا يريد)، جاء الفاعل مستترا جوازا؛ وللعلم به، فإنه وإن كان ربك قد أراد بك يسرا، فإن ربك أيضا هو الذي ليس يريد بك عسرا ولو واحدا.

فكان العلم به؛ ومن استتاره هنا أبلغ من ذكره.

إيجاز حذف: وعدم ذكره أيضا فيه إيجاز، وعدم تطويل، أو إسهاب، أو إطناب، فيما لا فائدة من ورائه.

بلاغة التكرار: وتكرار (بكم)، مرتين بهذه الموازنة، جعلت شقي المقطع متوازنين مرتبطين.

بل وفيهما من الذوق السليم واستثارة البيان، ما أنباك عنه مجيئهما.

فان ربك الرحمن، واحتفاء بك، كرر هذا الضمير (بكم) مرتين، في وقت لم يتكرر فيه لفظ الجلالة في هذا المقطع!

وأنت قد رأيت كم كان دورانك بين حذف مرة، وذكر مرة أخرى، وفي هكذا مقطع من آية واحدة، كان منه بدوها سحرا وبيانا وأدبا وبلاغة!

استتار وبروز: جاء الفاعل مستترا، وجئت أنت ظاهرا؛ احتفاء بك ورحمة من الله بك؛ كيما تكون عند هذا الخطاب وقفا.

ولتكملا العدة: ومن هذا التيسير الرباني الذي جاء نصا في هذه الآية الكريمة من أنه ربك سبحانه وتعالى قد أَلْزَمَ وأَجَازَ أن تقضي الأيام العدة التي أفطرتها من أيام آخر.

وهذا هو مقتضى قوله تعالى (ولتكملا العدة)، أي عدة أيام آخر في يسر لكم، وتيسير، ودون تحديد نطاق زمني لها؛ رحمة منه بكم، ورأفه ولطفا.

وأريد أن أقف عليه مزيد وقفة؛ وكيما تتضح الصورة، وعند زياده الطرق عليها أيضا.

التكليف على الوسع والطاقة: فإن ربنا الرحمن تبارك وتعالى جعل هذا الدين كله ميسورا، وفي وسع كل أحد مخاطب بأحكامه، ومنه هذا الصوم أو غيره.

وبه دل على أن الله عز وجل؛ ومن رحمته بنا معاشر البشر المساكين،
وإنما قد خاطبنا وألزمنا، وفي علمه أن هذا يدخل في نطاق ما تتحمله نفوسنا
وقلوبنا وأجسادنا وقرائحنا.

فلم يضع علينا ربنا إصرا أو غلا ولو واحدا.

وهذا مقتضى من مقتضيات قوله تعالى (ويضع عنهم إصرهم
والاغلال التي كانت عليهم).

فقاعدة اليسر قاعدة هامة من ديننا، وكذا قاعدة الوسع؛ وكما نحمد
عليهما ربنا تعالى.

ولتكمّلوا العدة: وهذه العدة ولما جاءت هكذا معرفة ب (ال).
ويكأنها في نطاق المساواة والعدل والمماثلة، لما قد أفطرتموه، فلا نزيد عليكم
منه شيئا؛ رحمة منا بكم، ولطفا؛ ولأن الله تعالى كان من أسمائه الحسنى أنه
اللطيف، وهذا من لطفه تبارك وتعالى.

وقد وقفنا على ملح ولطائف جميلة جليّة، ونزيده إيضاحا.

طباق السلب: وحين ترى قوله تعالى (يريد)، (ولا يريد)، وكما
أنف القول فيها طباق، وحين أسموا طباق السلب، أي الكلمة ونفيها.

طباق الإيجاب: ومن قوله تعالى (اليسر)، و (العسر). فهذا يسمى
طباق إيجاب، أي الكلمة وعكسها.

وهذا التناغم في مجيء طباق السلب وطباق الإيجاب. ومع ما أنف
ذكره من وجوه بلاغية جميلة أضفت على النص تناغما وحركة وتفاعلا.

الجناس الناقص: وإذا أزدت إليه ذلكم الجناس بين اليسر والعسر،
أتم المعنى أكثر.

وهذه بلاغة ربانية أودعها ربنا تعالى هذا القرآن. ومجابهة لقوم كانوا
قحا ومن عربيتهم.

العدة بين الخصوص والعموم: وقلنا إن العدة ها هنا يكون
مقصودا بها هي عدة الأيام التي أفطرها الصائم؛ ولعذر.

ويمكن أيضا أن تحمل هذه العدة على أنها عدة شهر رمضان كله.

ولأن النص يحتمل هذين المعنيين معا.

ولتكبروا الله: وهذه وحدها منظومة تكبير.

وأن يأتي بعدها (على ما هداكم)، ويكأن القرآن قد أتانا بموجب لهذا
التكبير.

وحين قد هدأنا ربنا، ووقفنا، وألهمنا قبول الرشد من ربنا.

وحين كان منا ذلك الصيام لله تبارك وتعالى في علاه، وهذا الهدى الذي
امتن به على عبده.

فكان قمنا أن يكون سببا وموجبا وبرهانا على ذكره تبارك وتعالى.

ولماذا التكبير خصوصا؟ ولكن النص، وحين يختار التكبير، دون ما
غيره من أسماء الذكر المباركة، فدلّت على كم كان قد أخلصته، وحين كان الله
أكبر.

ودلك على أهميتها هذه الشعيرة أيضا، وهي قولك الله أكبر.
ويكأننا وحين نقول الله أكبر، وحين كان ربنا عز وجل أمره أكبر، وعن
سائر أوامر.

فيسارع المسلمون إلى إحقاق أمره وتنفيذ أوامره وطاعتها.
ثم يكون أمره ونهيه تبارك وتعالى أيضا أكبر، ومن سائر النواهي
والأوامر عن غيره.

وهنا يكون العبد المسلم قد حقق مطلق هذا التكبير قلبا وقالبا ولسانا
وجارحة أيضا.

ويكأن هذا التكبير وسواء كان يوم عيد الفطر، وعلى ما قال قوم، أو
كان في غير يوم عيد الفطر.

وإلا أننا نقف حول اختيار النص الرباني لهكذا شعيرة التكبير، ودون
غيره. من سائر الأذكار.

وان ربك الرحمن عز وجل وحين قال (يا أيها المدثر * هم فأنذر *
وربك فكبر)، وكان ربك قال أيضا ها هنا (ولتكبروا الله على ما هداكم).

وحين قال تعالى أيضا (الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له
شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبرا)، وكان ربك أيضا جعل
من شعائر العيدين هذا التكبير، ودون غيره من سائر الأذكار.

وإذ كان هذا التكبير، على الوتر من صلاة العيدين، وفي الركعة الأولى
سبع تكبيرات، وفي الركعة الثانية خمس تكبيرات.

فدل ذلك على كم هو عظم شأن هذه الشعيرة؛ كيما يتربى العبد المسلم عليها، ويحقق في ذات نفسه تكبير أمر الله تعالى فيأتيه، وتكبير وتعظيم نهى الله فيجتنبه.

وهذا هو سر قصدي من اختيار شعيرة التكبير.

وانظر يوم كان المسلمون يروحون ويغدون ويفكرون في مخالفة أهل الكتاب، وحين صلاتهم، ولما يرى عبد الله بن زيد رضي الله تبارك وتعالى عنه في منامه هذا الأذان الذي يبدأ ب: الله أكبر الله أكبر، وينتهي ب: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.

وكيف دل على كم كان اختيار ربك، حين تقدم على صلاتك مبتدئاً ب: الله أكبر، فتحریمها التكبير، وتحليلها التسليم.

ويكأنك وحين تصلي ركعة واحدة، وإنما قد أتيت فيها بخمس تكبيرات شرعا من الله، وسننا من رسول الله.

وهذا الذي دل على كم هو عظم شأن هذا التكبير؛ وكيما تقول أبداً الله أكبر.

وكان رسولنا صلى الله عليه وسلم وحين كان يرتفع أو يعلو وإنما كان يقول الله أكبر. وذلك لحديث جابر بن عبد الله: كنا إذا صعدنا كبرنا، وإذا نزلنا سبحنا^(١).

(١) صحيح البخاري: ٢٩٩٣

وهذا أيضا من موجب اختيار واجتباء هذه الشعيرة، وهي قولنا الله أكبر. ولما كان هذا التكبير أيضا ومن الباقيات الصالحات، التي قال عنها ربنا الرحمن: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وحين قالوا إن هذه الباقيات الصالحات هي قولنا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هكذا في منظومة ذكر ندي طري هني سني، يعيشه المسلم ابتغاء وجه ربه شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن.

المبحث السابع: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

هنا لطيفة جليلة جميلة، في هذا الدرس، من دروس الآية الخامسة والثمانين بعد المائة من سورة البقرة المباركة.

وحين قال ربنا الرحمن عز وجل ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فأنت تلاحظ وتشهد فتحة على النون.

وكان يمكن أن يقول ربنا الرحمن عز وجل في علاه ولعلكم تشكرونني أو تشكروني!

ولعل هذا الحذف قد جاء تسهيلا أو تخفيفا، وهذا شيء.

أو لم يوجد هنالك حذف، وهذا شيء آخر.

لكنها لم توجد أصالة ولا نيابة؛ بدلالة وجود الفتحة على حرف النون!

ومن مثل سياقات آخر، جاءت في هذا الكتاب العظيم، ومن مثل قوله تعالى (فلا تخشوا الناس واخشوني)! فلماذا لم تأت ها هنا.

وعلما أن الشكر ها هنا مختص بربنا، وليس ينصرف الشكر ها هنا إلى غير خالقنا وبارئنا وإلهنا؟ وهذه لطيفة من لطائف هذا القرآن العظيم الذكر.

ذلك لأن الله تعالى يعلم في علمه عن عبده، وحين رأوا هذا التسلسل وهذا التوالي من هكذا رحمة وسعة ويسر وإزالة عسر، ومن سهولة، ويسر فريضة الصيام.

إن هذه التأثيرات، وهذه التيسيرات، كان قمنا أن يشكر عليها ربنا تعالى.

ومن ههنا عرفنا سر المجيء بياء المتكلم ههنا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وهذه ملحه من منح هذا الكتاب العظيم وتفرداته.

إن هذا الخطاب المتوازن في اسم لعل، وهو كاف الخطاب النائية عن هذه الامة المسلمة أجمعها! وفي خبر لعل ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ومن واو الجماعة المتصلة بالفعل المضارع، أي المخاطب أيضا.

وحين أوقفك على ولم قد خاطبك مولاك؟!

فإن الخطاب من الله تبارك وتعالى لعبده؛ رفعة شأن، وقدر من الله عز وجل.

لتقف أنت موقفا مخبتا أمام هذا العرفان، وهذا الذكر، وهذه الإشادة بك، من خالقك وبارئك!

وهذه أيضا من لفتات هذا الذكر المبين، القرآن الكريم العظيم.

وحين يأتي حرف بما قبله زيادة في لحمة ارتباط الكلام بعضه بعضا؛ وكما يبدو حلة بهية شذية زكية نذية، تأخذ بلب القارئ والمستمع والتالي. ومن هكذا ذوق رفيع عال سامق، تميز به هذا الأداء القرآني الفريد!

إفادة لعل: إنه لمعروف أن لعل تفيد الرجاء، وفي القرآن فإن

لعل تفيد التحقيق لهذا لرجاء.

إِذَا اذًا كَيفَ لَنَا أَن نَفْهَمَ أَن لَعَلَّكَ تَفِيدُ التَّحْقِيقَ لِلرَّجَاءِ؟

وَأَسْعَفَ نَفْسِي وَإِيَّاكَ أَيُّهَا الرَّشِيدُ، أَنَّ رَبَّكَ الرَّحْمَنَ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذْ قَدْ عَلِمَ عَنْ عِبِيدِهِ، أَنَّهُ أَوْلَاءُ الَّذِينَ يَنْبَسُطُونَ لَهُ تَعْبِدًا، وَيَنْخَلَعُونَ لَهُ أَدْبًا وَنَعْتًا وَوَصْفًا وَتَمْيِيزًا وَاخْتِصَاصًا وَمَدْحًا وَثَنَاءً عَلَيْهِ.

وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَبَعْدَ أَنْ تَفِيدَ لَعْلَ الرَّجَاءِ، بَلْ تَفِيدَ الْحَقِيقَةَ؛ وَلَعَلَّمَ اللَّهُ عَنْ عِبِيدِهِ، أَنَّهُمْ دَائِمُو الشُّكْرِ لَهُ، مُسْتَمِرًّا فَلَا يَنْقُطِعُ لِسَانٌ عَنْ شُكْرِهِ، وَلَا لَبٌّ عَنْ شُكْرِهِ أَيْضًا.

وهذه منحة جميلة، وملحة فضيلة، أرجو الوقوف عليها.

وكيما يكون العبد مستمرًا أبدًا، وَإِذْ لَا يَزَالُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ شَاكِرًا لِأَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى.

فائدة خبر لعل: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يَأْتِي خَبْرُ لَعْلَ جُمْلَةً فَعْلِيَّةً؛ دَلَالَةً الْاسْتِمْرَارِ، وَيَأْتِي اسْمُ لَعْلَ ضَمِيرَ الْمَخَاطَبِ (كَمْ)، وَلَمَّا كَانَتِ الْجُمْلَةُ كُلُّهَا إِسْمِيَّةً، دَلَالَةً ثَبَاتِ هَذَا الْعَبْدِ الْقَانِتِ الْخَاضِعِ السَّاكِنِ الْمَحْبِ الذَّلِيلِ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الْعَابِدِ لَهُ وَحْدَهُ لَا سِوَاهُ. وَحِينَ قَدْ أَفْرَدَهُ بِشُكْرِهِ.

إِنَّ هَذَا الشُّكْرَ، وَحِينَ قَدْ كَانَ مِنْكَ مُسْتَمِرًّا أَبَدًا، فَلَا يَنْقُطِعُ؛ وَلِأَنَّ رَبَّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِهَذَا الشُّكْرِ مِنْكَ أَبَدًا؛ وَلِسَابِغِ نِعْمِهِ.

وإلا أنك أيضا، وحين تشكر مولاك يجازيك، وحين أولاك وأكلأك ورعاك وحفظك وآواك وأغناك. ولأن ربك الرحمن قال أيضا (لئن شكرتم لأزيدنكم).

فأنت وحين تشكر ربك الرحمن، ليزيدنك ربك، عطاءه ومنحه. وبه يحسن بك أن تكون حصيفا ذكيا ألمعيا عبقريا، فتديم شكرك، وتزيد ثناءك لمولاك!

وكيف بك أن تستمطر منه رعاءه وحفظه لك.

أصل مادة الشكر: إن مادة الشكر، وحين كانت من أصلها تعني الزيادة، فأنت حين تشكر مولاك فيزيدك عطاء أيضا؛ ودلالة الأصل اللغوي لكلمة الشكر.

وأنت حين تشكر فتستصحب معك أن ربك الرحمن أهل لأن يشكر، وكما أنه سبحانه أهل لأن يعبد.

والشكر والعبادة قرينان: لا يفترقان، فمن عبادته تبارك وتعالى شكره، وشكره كان عبادة له سبحانه أيضا.

ويكأنك وحين تشكر مولاك الذي هداك وأعانك وأغناك وآواك، فإن تعالى جعل شكرك له مانعا من موانع عقابه وعذابه.

واسمع لقوله تعالى؛ تطبيقا لهذه القاعدة الهامة العظيمة الشأن ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما﴾ [النساء: ١٤٧].

وحين جعل الله تعالى الشكر من أسباب دفع العذاب وعدمه.
وهو ذلكم الشكر لمولك، ومن الإضافة إليه تعالى، ومن ثم كان قمنا أن
يكون قرين الإيمان به تعالى أيضا، ودلالة عليه!

وإذا كان الرب عز وجل يشكر، وهو ذو المن والفضل والعطاء، فحري
بك أيها العبد أيضا أن تكون قائما على هذا الشكر والإيمان.

الفصل الرابع

تفسير قوله تعالى

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]

وفيه ثمانية مباحث

المبحث الأول: بين يدي الآية

هذه هي الآية السادسة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة المباركة.

وهي آية الضراعة إلى ربنا الرحمن.

وعلم العطاء، ومن قلوب لاهثة بدعاء ربها باسط الأرض ورافع السماء.

وهذه الآية تتضمن كم كان ويكون ربنا كريما جوادا.

وهذه الآية تستدعي مكامن الخشية من قلوب العبيد، وتستشرف آيات الرجاء والأمل، وتحصيل الرغائب، ودفع الرهائب، وحين يلتجئ العباد إلى مولاهم الحق المبين.

والحق أقول: إن هذه الآية لتأخذ وتشد وتجذب القلوب والأفئدة والأبصار.

ويكأنها موجب اطمئنان القلوب، ولما كان منها كذا اللجأ إلى ربهم العزيز الرقيب.

إن هذه الآية تبعث الأمن في النفوس، وتوجب السكينة في القلوب؛ ولما كان العبد معها في شأن، وإذ يركن إلى ركن ركين، هو ذلكم الله رب العالمين. ويكأن ربنا الرحمن عز وجل قد فتح لنا هذه الصفحة المشرقة النورانية المضيئة؛ وكما يكون لدينا دائما نوافذ لا نافذة واحدة، نتطلع منها إلى إشراقات عطائه وبهائه ومنه وجود وفضله.

وليطمئن عبد وقلب ولب إلى هكذا باب رب كان مفتوحا على مصراعيه، فليس يغلق أبدا.

وحين كان هذا الباب هو باب العطاء الرباني الخالد.

وحين يطلع العباد بعبوديتهم لرب العباد. فليس يخافون من بعد خوف أبدا.

بل يبدل ربهم تبارك وتعالى خوفهم أمنا.

إنه هو ذلكم الرب العظيم الجواد المنان، وحين قد أحب طرقا على بابه، وحين يطرد السائلون من على الأبواب!

وإلا أن ربنا الرحمن يحب طرقا كثيرا على بابه؛ ولأنه تعالى يجيب مضطرا، ويغيث ملهوفاً، ويعطي من سأل، ويغفر لمن دعا، ويجيب لمن تضرع، ورفع أكف ضراسته إلى مولاه.

وحين كان من موجب ذلك، أننا نعقد عزمنا، أننا كلنا إلى ربنا نعلن فقرنا وحاجتنا ومحبتنا وذلنا ورغبتنا ورهبتنا إلى هكذا رب علمناه، جوادا، كريما، لا يرد يدا قد رفعت إليه، ودودا كريما.

هو ذلكم الرب الرحيم الرحمن، وكيف لا وقد كان، ولا زال متصفا
برحمته وعفوه ومنه وجوده؟

إن هذه الآية تبعث إلى كل سبيل ممكن لطمأنينة العباد، وحين
يرفعون أكفهم إلى ربهم.

ويكأنهم داعونه وإذ يوقنون أنه ليس يرد يدا قد رفعت أو بابا قد
طرق إليه تعالى.

جواد كريم حسبناه، عفو رؤوف علمناه، مجيب سؤالا وعيناه وعهدناه
وعرفناه.

وتاريخ البشرية مع هذا الرب حافل بأنه هو ذلكم الكريم الجواد
المنان.

وإذ جعل من قرآنه آية منتصب؛ طمأنينة لسائر عبيده، كافرهم
ومؤمنهم معا.

واسمع قول ربك الرحمن ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ
السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾
[النمل: ٦٢].

وأيا ما كان هذا المضطر، مؤمنا لا تسل، كافرا لا تسل.

ولم يكن في قرآننا سواها هذه الآية لكفتنا.

المبحث الثاني: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾

في هكذا إعلان رباني سام كريم، يستحث عبیده وعباده، أن يرفعوا إليه أكف ضراعتهم متذللين خاشعين خاضعين.

ويكأنه تعالى هو ذلكم الجواد المنان الكريم، الواسع، ومن موجب هذه الوسع، وتلكم الإحاطة بأوجه الخير أجمعها، من رب كريم واذ كان هذا الرب ولا زال وحين جاء من حديث أبي ذر الغفاري: عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن

وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وفي رواية: إني حرمت على نفسي الظلم وعلى عبادي، فلا تظالموا^(١).

وأنت مدرك كم كانت الإبرة وحين تغمس في ماء البحر المالح، وأيا ما كان غمسك لها، وإذ تخرج ويكأنه ليس قد علق بها من ماء! ولأن الماء المالح ذو كثافة تجعله ليس يعلق بالمخيط! وهذا كناية عن ذلكم الجود والكرم الربانيين.

(١) صحيح مسلم: ٢٥٧٧

المبحث الثالث: فضل الأزمنة والأماكن الفاضلة

تحروا الأزمنة الفاضلة: إن الملفت في هذه الآية السادسة والثمانين بعد المائة من سورة البقرة أننا قد أتحفناها ومنحناها وأعطيناها من ربنا عز وجل في علاه. ومن بين الآيات ووسط آيات الصيام.

وإذ كان يمكن أن يقال: وما هو موقع هذه الآية، ومن حيث إن السياق كله تنزل بيان فضيلة وأحكام الصيام من قبلها.

ومن ثم وحين يستأنف القرآن الكريم رحلته المباركة مع الصيام أيضاً، ومن بعدها.

فَلِمَ إِذَا كَانَ هَذَا الْوَضْعَ وَالْمَحَلَّ وَالْمَوْقِعَ، لِهَكَذَا آيَةُ الدَّعَاءِ؟!

وأقول وبالله التوفيق: إن العبد حري به أن يتلمس وقت إجابة دعائه، من لدن ربه وخالقه ومولاه.

وحين يقدم بين يدي ربه طاعة وإخباتاً وقنوتاً لهذا الرب العظيم المتعال، ومن ثم يدعو ربه عز وجل خوفاً وطمعاً.

ومن بعد ذلك ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وهو إذ يؤدي هذا الدعاء؛ خوفاً من ربه، وطمعاً في فضله، ورجاء ثوابه، وقبوله.

إن هذا هو مقتضى قوله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومن حيث قد دعوت، فتتنزل عليك الرحمات، ومن دون حتى وجود
حرف عطف الواو أو ما سواه!

ولأن رحمة الله تعالى قريب منك أيها المحسن، وحين قد دعوت ربك
خوفا وطمعا.

وهذا هو الحال الذي يجب أن يكون عليه العبد دنياه يعيش خوفا
ووجلا؛ ولأن ربه تعالى قال ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وها هم وقد وجدتهم يأتون من الخيرات والطاعات، ورغمه فإنهم
وجلون خائفون!

وهذا هو درب السالكين الى مدارج رب العالمين، خوفا وطمعا.

إن هذا الطمع أي الرجاء؛ وكما يكون العبد متقلبا بين هذين الركنتين
الأساسيين من أركان تركزت عليها وحولها عقيدة المسلم في ربه تبارك
وتعالى.

وأقول: إن تقديم الدعاء بين يدي طاعة، قمن أن يتقبله، ويجيبه مولاه
تعالى. وهذه كلية قمنة بالوقوف عندها.

ويزداد الأمر إلحاحا، وحين دعا ربه تعالى.

نبي الله زكريا عليه السلام يتحرى الزمان الفاضل والمكان
الفاضل للدعاء: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾

يؤدي بين يدي ربه طاعة وعبادة وإخباتا وطمعا ووجلا.

ثم يرفع يديه فلا يردهما ربه صفرا!

بلاغة أسلوب الشرط: ونحن نجول دائما ونذكر بهكذا أسلوب الشرط الذي يجابهنا كل مرة. وحيثما اطلعنا إلى وفي وعلى كتاب ربنا الرحمن تبارك وتعالى.

إن هذا الأسلوب الشرطي جميل أيما جمال، وإن كان فيه من إحكام الأداء وترباطه وانسجامة وتضامنه وتضامه، ما قد حكى عنه ذلكم أسلوب الشرط.

دلالة كاف الخطاب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾: وهذه كاف الخطاب لنبي ربنا الوهاب التواب فيها ما فيها من علو شأنه وجميل قدره وعظيم شرفه. ولأنه نبي الرحمة والملمحة عليه صلوات ربي وسلامه وزكواته إلى أن يقوم الناس لرب العالمين بأبي وأمي ونفسي، هو رسول الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان هذا التشريف وزهذا التقدير من ربنا تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومن هكذا توجيه خطاب من، وما المطلوب منك إذا أيها العبد حيال ذلك؟

أن تقدره وأن تعظمه بأن تقف عندما أمرك فتأتي أمره، وعندما نهاك فتنتهي عما عنه قد نهاك. وهذا هو مطلق الأداء في محبتك لرسول الله، ورب العزة والجلال من قبل.

ولأن ربك الرحمن قال لك ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

إن دليل محبتنا لربنا الرحمن، ألا يكون فعلنا وأداؤنا وقولنا في جانب،
وفعله صلى الله عليه وسلم وقوله وتقريره في جانب آخر.

فإن الذي أبعد النجعة هكذا حري به أن يعود إلى الجادة.

﴿عِبَادِي﴾: وما أدراك ما عبادي! انظر إلى هذا الأداء العظيم الجليل
الفريد ذي الشأن.

وإن قد رأيت المفردة (عبادي) وإن كان هذا الإيحاء بالعبودية لربهم
وحده.

وحين أوقفوا أنفسهم على هكذا عبوديتهم لربهم ومولاهم الحق المبين
وحده.

وهذا هو الاستئناس والإيناس الذي نستشرف منه معاني العبودية التي
أنبأتك عنها هذه المفردة. فإن كلمة (عبادي)، وهذه المفردة الشجية فيها
معاني العبودية لربنا الرحمن عز وجل، كأنك قد قدمت بين يديك عبوديتك
لربك ومولاك.

ومنه فكان ربك قريبا منك أيضا.

أكرر يقدم العبد بين يدي ربه عبودية حققة، ومن ثم فلا يباس ولا
يئأس ولا ييأس، وإن دعا واستغفر وأتاب وتاب ورجعن وإن يقبله مولاه؛
فإن مولاك الله تعالى كريم جد كريم، رحيم جد رحيم، رحمن وأيما كانت
الرحمة أيضا.

المبحث الرابع: ما حكمة الحث على الدعاء بين آيات الصيام؟!

ومن حيث قد ذكرنا وذكرنا أن اختيار أوقات الدعاء، وإنما يكون لزم، وهو كزمن شهر رمضان، أو لمكان، وهو كالأماكن الفاضلة ومنها المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومنها أن يكون العبد على هيئة صالحة من صدق أو صيام أو صلاة أو نسك.

ومما أنف بعض منه.

ويكأننا نزيد الأمر وضوحا.

إننا الآن ولما جاء هذا التنزيل المبارك، بذكر الدعاء، ومن بين ثنايا وحنايا آيات الصيام وأحكامه. فدل أيضا على ذلكم تذكير للعباد، أن يرفعوا أكف ضراعتهم إلى مولاهم الله تعالى الحق المبين. ومن ثم فإن الله عز وجل قد تكفل ووعد من قبول وإجابة.

وهكذا ترى منه تبارك وتعالى وفضلا على العباد المساكين.

يؤيد هذا أكثر وأوضح ما قاله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حتى يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله

فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتي لأنصرك ولو بعد حين^(١).

ونؤكد ونكرر أن هذا ولعظم وشرف المقام، وهو ذلكم أداء العبد صيامه لربه الرحمن تبارك وتعالى.

ومنه؛ فكانت المكافأة والمنحة منه تعالى لعباده.

وحين ذكرا أن أحدهم كان يجمع نفسه وولده وأهله عند إفطاره في رمضان، ويدعون ربهم عز وجل بين يدي إفطارهم هذا.

ومنه؛ فدل على هكذا جيد انتهاز هذه الفرصة السانحة، للعبد وأن يقبل بذات قلبه وكليته على ربه ومولاه، وإن ربه ومولاه ليس يرده صفرا أبدا.

وقد تكفل نبينا صلى الله عليه وسلم إيضاح ذلك أكثر وأوفر، ومن قوله صلى الله عليه وسلم آنف الذكر: ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حتى يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتي لأنصرك ولو بعد حين^(٢).

هؤلاء ثلاثة نأخذ منهم موضوعنا الآن وهو الصائم، ويوم أن قد صام، وهذا الذي يبين أوضح دلالة أيضا على قول رب العزة والجلال: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي بهز

(١) سنن الترمذي: ٣٥٩٨.

(٢) سبق تخريجه.

وكان هذا من جنس الجزاء الذي قد تكفل ربنا الرحمن به لنا معاشر البشر المساكين إلى فضله.

بلاغة الإضافة: وأنف ذكر أن قول رب العزة والجلال: ﴿عِبَادِي﴾، في هكذا إضافة العباد إلى رب العزة والجلال تبارك وتعالى، ولما كان رفعا لشأنهم، واهتماما بهم، وتقدير لهم، وعظيم شأنهم عند ربهم عز وجل. وكان هذا المعنى هو الذي نستشرفه أيضا، وأكثر من وجود هكذا ياء المتكلم المضافة.

بلاغة اختيار لفظ العباد دون العبيد: وثم لطيفة أخرى، وهي اختيار لفظ العباد.

إنه ما جاء في القرآن العظيم إضافة لفظ العبيد إلى رب العالمين تبارك وتعالى، وإنما الذي جاء هو إضافه لفظ العباد إليه تعالى.

فدل هذا على أن كلمه العباد كلمة حانية آتية مستأنسة، فيها فيض هذه العبودية لله تبارك وتعالى من لدن أولاء العباد.

وحين قد قدموا أمره على كل أمر، وحين قد انتهوا عما نهى عنه تبارك وتعالى، وفي كل نهى أيضا. فاستحق بهذا هذه الإضافة ثناءهم من ربهم.

وكما قال تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. فقد رأينا ههنا كلمة ﴿وَعِبَادُ﴾ منضافة إلى ربنا ﴿الرَّحْمَنِ﴾.

وكذا قوله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

هكذا أيضا في إضافة مليحة بياء المتكلم.

ومنه قوله تعالى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

وتجد تحت الدال كسرة، أي أن هنا ياء المتكلم المحذوفة أيضا.

اما لفظ العبيد فلما جاء، جاء خاليا عن هذه الإضافة!

واسمع قول ربك الرحمن ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

إنه وأن نعم قد يشمل لفظ العبيد مفردة العباد، ويكأنه كل عبيد يدخل معهم العباد، ويكأنه أيضا ليس كل عباد يشملهم العبيد.

وهذه من مفردات هذا الكتاب وتفرداته وعظائمه ومنحه ووقفاته الجيدة المليحة.

والتي نستأنس نحن أيضا منها هكذا إضافة ربنا الرحمن كلمة العباد إلى ذاته المقدسة الشريفة. ويكأنها ومما تحمله من هكذا حنو تجعل العبد مستأنسا، وأيما استئناس برحمة ربه تعالى له.

إن ذلك المعنى نستشرفه من هكذا التركيب الإضافي ﴿عِبَادِيَ﴾.

سبب النزول: وقف الناس عند سبب النزول لهذه الآية

الكريمة الشريفة، وحين نزلت هذه الآية، سألوا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، كيف ندعوا ربنا، فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: واختلف في سبب نزولها، فقال مقاتل: إن عمر رضي الله عنه واقع امرأته بعد ما صلى العشاء فندم على ذلك وبكى، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ورجع مغتما، وكان ذلك قبل نزول الرخصة، فنزلت هذه الآية: " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ " .

وقيل: لما وجب عليهم في الابتداء ترك الأكل بعد النوم فأكل بعضهم ثم ندم، فنزلت هذه الآية في قبول التوبة ونسخ ذلك الحكم، على ما يأتي بيانه. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلط كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية. وقال الحسن: سببها أن قوما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزلت. وقال عطاء وقتادة: لما نزلت: " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم (٣) " [غافر: ٦٠] قال قوم: في أي ساعة ندعوه؟ فنزلت (١).

(١) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٢ / ٣٠٨

المبحث الخامس: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾

ولما قد أطلعنا هذه الآية الكريمة على هذه حقيقة ربنا تبارك وتعالى.

وحين كان ربنا ويكون ولا زال سبحانه قريبا من عبده، يجيب مضطرا، ويعطي سائلا، ويغفر لمستغفر، ويتوب على من تاب، ويقضي حاجة من كان ذا حاجة، ملهوفاً إليها، مستغيثاً بربه الرحمن عز وجل. إن هذا الذي نستشرفه ونستدعيه، من هذا المعنى العظيم الكريم، من هذه الآية التي نحن بين جنباتها وحناياها وثناياها.

ويكأن يهودا، وحين تقسو قلوبهم، وحين يجهلون عن حقيقة ربهم، وحين يروحون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم قائلين بهكذا غلظة: يا محمد كيف تدعي أن ربك قريب، وأنت تقول إن بين كل سماء وسماء خمس مائة عام! وإن غلظ السماء الواحدة مثل ذلك!

هذا قول يهود! وهذا قول ينم وكما أقول عن جهل مركب مضاعف عن حقيقة القدرة لربنا تعالى.

بل كان هذا صنفا، ولما قد ختم ربنا الرحمن على قلبه، وإذ ليس يكاد يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، فهذا وجهه.

لكن المسلم سائر في هكذا طريق واضح مرسوم معلوم سلفا.

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾: وحين كان علمه عن ربه تبارك وتعالى أنه قريب.

وهذا القرب الذي قد أنبأتنا عنه هذه الآية قربا حقيقيا، غير أنه بعيد ومحال عن حدود المكان والزمان.

ولأننا دائما نقول بأن الله تبارك وتعالى بائن من خلقه.

وأنه على العرش استوى، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وفي نفس الوقت نسير سيرنا هذا، ونؤمن أن الله تبارك وتعالى قريب، ومن قوله تعالى ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، ومن قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلٍ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وهذا القرب لله تعالى، وإنما هو قرب إيناس، فبه ومنه يأنس المسلم، وحين يعلم أن ربه تعالى منه لقريب.

ولأن هذا القرب مؤذن بإجابته عبده إذا دعا، وبعلمه وحين دعا العبد ربه أيضا.

إن هاتين الحقيقتين العظيمتين المتجليتان الظاهرتين غير الخفيتين عن هكذا قلب مسلم، وحين يعلم معنى قرب ربه تبارك وتعالى منه، أي أنه قريب لإجابته، وعليه بسؤاله.

فتبينان وتوضحان لنا نحن معاشر المسلمين ما معنى قرب رب العزة والجلال.

ويكأنك يمكن أن تضيف أيضا وفوق علمه وفوق إجابته عبده، وحين يدعو العبد ربه، هو هذا التفضل من الله، وهذا المن من هذا الرب الكريم، وحين كان من عطائه وجوده ومنه وفضله وكرمه على هذا العبد المختب

القانت الخاضع الخاشع أكثر من غيره، وإلا فما معنى الاصطفاء والاجتباء، وإلا فما الفرق بين مسلم خاضع قانت خاشع آناء الليل وأطراف النهار، متقلب في عبادة ربه سبحانه وتعالى صلاة وصياما وتلاوة وقربا، وبين غيره ممن قد كان خاليا عن ذلك أو بعضه؟!

إن هذا القرب نؤكد ونعيد فيه وندور ونكرر، هو قرب الإجابة، وقرب العلم، وقرب التفضل.

إن هذا القرب ليس يفهم منه، لا من قريب، ولا من بعيد، هذا الذي يمكن أن يتبادر إلى ذهن متقول.

ومن كمثّل قول يهود، وحين يشبه أو يمثل ربنا الرحمن بحادث، ولأن الله تعالى قال ليس كمثله وهو السميع البصير.

من بلاغة القرآن الحكيم

١- فاء العاقبة: إن ربنا الرحمن، ومن خلال هذه البلاغة القرآنية المجيدة، التي نحكي حولها، وحين قال ربنا الرحمن عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي﴾، وهذه الفاء التي تفيد التعقيب، أي ليس هناك من وقت، أو زمن يمكن أن يتخيل، ومن بين دعاء العبد ربه، ومن بعد إجابة الرب عبده!

٢- ويكأن هذا الإنعام هو الذي يكشف لنا أيضا عن حقيقة هذا القرب، الذي منه يكون هذا الأنس!

٣- ٥- **التوكيد:** والحرف الناسخ (إن)، يفيد التوكيد، وإن مسلماً ليس يشك، بل إن المسلم معقود في قلبه هذا اليقين بربه تعالى، وإنه لقريب.

٤- ولما يأت هكذا اللفظ، وكأنه يزيح ستارا أمام قلوب وأعين وأذان ليست ترى هذه الشفافي القراني البراقة الساطعة اللامعة. وحين رآها ذلكم العبد المسلم.

٥- **اليقين المضاعف:** ويكأن هذا الحرف الناسخ، وحين أفاد التوكيد، وإنما يفيد وإن جاز التعبير يقينا فوق اليقين! وليربت عبد على صدر ذات نفسه، أن يطمئن، وأن يستكين، وأن يأمن إلى أن ربه الرحمن عز وجل منه لقريب؛ ولأنه تعالى قال أيضا ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

٦- ومما أنف وقلت: قال الله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

٧- وأنف ذكر أن ليس هناك، ومن حيث لم يرد لفظ: فقل لهم، أو إني قريب، إمعانا في إسعاف العبد، وطمأنته إلى قرب ربه تعالى.

وهذا يجعل الإيناس إيناسا مركبا مضاعفا. ومنه الأمن والطمأنينة والسكينة أيضا.

٨- **مجيء جواب الشرط:** جاء جواب الشرط جملة إسمية، وليس جملة فعلية؛ دلالة هذا الاستقرار.

- ٩- وهذه رحمة أخرى قذفت في قلب عبد مطمئن بذكر مولاه، وحين قد خلى وحرّم هذه النعمة غيره، وممن قد كفر بالله ربه تبارك وتعالى.
- ١٠- **يَاءَ الْمُتَكَلِّمِ:** هذه ياء الإضافة للمتكلّم، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي﴾، وحين جاءت هكذا ثلاث مرات متتالية وبلا فصل!
- ١١- وإذ تفيد هذا التفرد بالملك، وهذا التفرد بالقرب، وهذا الحنو بالعبد. من هكذا ذلكم الرب الكريم، ومما يلائم كونه كان بعبیده رؤوفاً رحيماً لطيفاً.

المبحث السادس: أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصما ولا غائبا.

وحين قد رأينا كيف كان قرب ربنا منا، وعلى غير كبر وعتوا يهود،
وحين أنكروا ذلك، ومن سألهم نبينا صلى الله عليه وسلم: كيف تزعم أن
ربك قريب وأنت تقول إن السماء الواحدة سمكها خمسمائة عام، وكذا وما
بين كل سماء وأخرى خمسمائة عام، وأنت تقول سبع سماوات.

وربنا فوق عرشه قد استوى. هكذا أثبتنا.

وقلنا إنه جهل بحقيقة ربوبية ربنا الرحمن.

ومما أنف أيضا. ومن إثبات هذا القرب؛ ومن هذه الآيات التي نحن بين
أيديها.

ثم ومن قول رب العزة والجلال (ونحن أقرب إليه منكم ولكن ولا
تشعرون)، ومن قوله تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين)، ومن
قوله تعالى (سميع قريب).

وبين أيدينا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن
أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه، وحين قال كنا مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم، وكنا إذا ارتفعنا كبرنا وارتفعت أصواتنا.

وهذا هو شاهد الكلام: وارتفعت أصواتنا فقال لنا النبي صلى الله عليه
وسلم: أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصما ولا غائبا.

إنه الله سبحانه وتعالى سميع قريب، إن ربكم سميع قريب، يسمعكم وهو إذ قريب منكم أبدا.

فإن هذا إثبات منضاف إلى الآية التي نحن بين يديها على قرب ربنا الرحمن واتصافه بهذا القرب. وإنه ليس كقرب أحد وليس يحده زمان ولا مكان .

إن ربنا عز وجل منزّه عن الحيز؛ ولأنه تبارك وتعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

هذا ملخص وموجز سقناه كثيرا، واستدللنا عليه وفيرا.

ولأنه بحاجة إلى هذا الإثبات، ولأنه بحاجة إلى هذا التأكيد عليه؛ لترسيخه في قلوبنا، وعقائدنا، ويقيننا بربنا عز وجل.

ويكأننا وحين ندعو نكون مطمئنين لقرب ربنا منا.

وحين قد رأيت ولامست هذه الآية شغاف قلبك.

وحين قد تميزت هذه الآية، وأكرر ومن ورود الضمير في (عني)، و (فإني)، و (أجب) أنا، و (دعاني)، وعلى قول بعض القراء وفي إثبات ياء المتكلم، أو حتى حذفها. فإن حذفها لا يغني عن إيجادها؛ فإنها موجودة. و (فليستجيبوا لي) ومن ضمير المتكلم (أنا)، وليؤمنوا (بي)، هكذا في تضافر لذكر هذا ضمير المتكلم للمفرد، وهذا ليس يجيء هكذا عبثا! وإنما جاء لبلاغة قرآنية أولا، ولإثبات التوحيد ثانية.

ويكأنك وحين ترفع يديك إلى مولاك فلا تشركن معه غيره أبدا بل
أفرده ربك وحده برفع يديك إليه وهو سبحانه وتعالى الذي يجيب مضطرا
ويغيث ملهوفاً ويغفر لمستغفر ويتوب على من تاب وأنبأ.

وهذه حيثية جد جميلة جلية.

وإن قيل وما سر ذلك؟ وأقول وبالله التوفيق: ولأن هذا الدين قد تنزل
في بيئة قوم ولا زال المسلمون يعانون من هذه الشائكة وإلى يومهم هذا،
وحين ترفع الأكف إلى الله تعالى، ومعه غيره (الوسيلة)، أو ترفع لغيره
ابتداءً، وحين يذهب عند ضريح ليدعى الله عنده، أو اتخاذ الوسائط
والشفعاء، ومن أول نزول هذه الدعوة المباركة، وإلى يوم الناس هذا.

فجاء فجاء ضمير المتكلم المفرد العائد على ربنا تبارك وتعالى؛ إزاحه
لهذا الستار، وكشفاً لهذه العوار.

وحين يريد ربنا الرحمن عز وجل أن يثبت هذه العقيدة في الله تبارك
وتعالى وحده، فلا يدعى إلا إياه، وأكرر أن مجيء ضمير المتكلم المفرد العائد
على الله عز وجل؛ ترسيخ وتثبيت لعقيدة التوحيد في قلوب القوم وكيف
يرفعون أكفهم إليه وحده، لا بواسطة، ولا من دونها.

وهنا وقفات جميلة جلية، وأسارعك قولاً:

بلاغة اختيار الفعل (أجيب): إن الفعل (أجيب)، هذا فعل حسن،
وحين يفتح ربك الآفاق الواسعة أمامك، ومن موجهه، أنك مجاب؛ كيما
تفرح، وتطمئن إلى أنك، وحين تدعوه وترجوه تعالى، فإنه ليجبرن بخاطرك،

ولن يردك صفرا خائبا؛ ولأنك بفوزك وإنك لسوف تنال ما يرضيك وحين
تدفع برفع يديك إليه وحده.

إن هذه كلية أرجو الوقوف عندها.

إن الفعل (أجيب)، وإذ يقتضي هذه الحفاوة الربانية بعبد رفع يديه
إلى مولاه تعالى الحق المبين وحده، وإذ كان من مؤدى ذلك ويكانه تعالى
يقول لك: مالك إلا الذي يسرك ويرضيك ويفرحك ويبسطك من ربك.
لأنك له عبد، وهو لك رب.

وهذه العلاقة بين هذا العبد وهذا الرب هي تلك العلاقة القائمة على
الرحمة من الأعلى وهو الله تعالى، إلى الأدنى وهو أنت ايها العبد الفقير.
ويوم أن تظهر على ساق العبودية، وتبسط على فراش الذلة له وحده،
وبساط الاستكانة إليه وحده، أنك له عبد، حق ما يكون العبد!

بلاغة تقديم جواب الشرط: إن ههنا ملحظ جميل أيضا جد
الجمال، وحلو جد الحلاوة!

وإن قيل ما هو؟ قلت لك: اسمع هكذا أسلوب الشرط: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ
الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وحين تقدم جواب الشرط ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾، على
فعله ﴿إِذَا﴾؛ إيناسا لك أيضا!

وإلا فإن الأصل أن يقال: إذا دعوني أجيبهم.

فههنا أفسح المجال بتقديمه جواب الشرط!

ويكأنه مضمون على فعل الشرط!

المبحث السابع: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾

من آداب الدعاء

يستجاب لأحدكم ما لم يعجل

وحين تدعو ربك فكن واثقا متيقنا من أنه لسوف يجيبك، وليس يردك أبدا خائبا.

لكن ربك قدم هذا؛ حسنا لك، وانبساطا لك، ولأساريك؛ كيما تفرح وتسعد وتهنأ وتطمئن وتأمين، أنك وإذا رفعت يديك إلى ربك فيقيناك به وعهده لك! أنه لن يردك خائبا بل غانما. وهذا ملحظ جد أرجو الوقوف عنده.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي^(١).

فأنت لا تعجل، وحين تدعو؛ ولأن رسولك صلى الله عليه وسلم قال لك؛ وطمأن لك، إذا دعا العبد ربه فإنه تعالى سيستجيب، يعني يستجيب!

يستجيب رب العزة فيستجيب له ربه بإحدى ثلاث: إما بالذي دعاه، وإما أن يدخر له في آخره، أو أن يرد عليه بمثله شيئا، يجده ويراه ويعلمه الرب عز وجل أفضل لك من دعائك، وأنت بين كنفات رب رحيم لطيف رؤوف بك، يعلم ما يسرك فيهبك، ويعلم ما يضرك فيمنعك، ويجانبك.

(١) صحيح البخاري: ٦٣٤٠

فعن أبي سعيد الخدري: ما من مسلم يدعو، ليس بإثم ولا بقطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها قال: إذا نكث، قال: الله أكثر^(١).

وأنه تعالى ليستجب لعبده وإذا دعاه وغنما ما لم يكن دعاؤه متعديا فيه ولحديث: ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كف عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم^(٢).

ومنه حديث: ما من رجل يدعو الله بدعاء إلا استجيب له ، فإما أن يعجل له في الدنيا ، وإما أن يدر له في الآخرة ، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل . قالوا : يا رسول الله وكيف يستعجل ؟ قال : يقول : دعوت ربي فما استجاب لي^(٣).

وهذا هو الذي يجب أن يكون أماننا من آداب دعائنا ربنا تعالى، ان ندعو لصالح أنفسنا وغيرنا ولا ندعو بإثم أو قطيعة رحم.

ولما كان ربنا تعالى قريبا، ولما استشرف منا الدعاء، ولما قد كان حقا منه وفضلا ومنّا وأن يجيب يدا رفعت إليه وقلبا منكسرا اضطر إليه وخاطرا محتاجا قد تطلب من ربه رحمته ونعماءه ورضاه وسناه وعطاياه.

(١) صحيح الأدب المفرد، الألباني: ٥٤٧

(٢) الترمذي، الألباني: ٣٣٨١

(٣) صحيح الترمذي، الألباني: ٣٦٠٤

إن هذا المحفل العظيم من هذا العطاء الرباني الكريم، وها نحن قد وقفنا عليه كثيرا.

وإنما نريد أن نوّكده، وحين قد أمر ربنا تعالى، أن ندعوه، وحث أن ندعوه، وأثنى على من دعاه. وها أنت قد رأيت كيف أن ربك عز وجل قد انتصب بنفسه وذاته وقده وتنزله وعظمته وقدره لك؛ ثناء ورحمة أيضا.

وانظر قول ربك هذا قول الحاني الرضي الحني العطوف الرؤوف، وحين قال ربك خبرا عنه عز وجل في علاه ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

ولماذا ربنا؟ لأنه بكم رؤوف رحيم.

إن هذه هي رحمة ربي ورأفة إلهي تسبقني وتغمرني.

وإن هذه ملائكته وقد سخرها ربك لك ومن أجلك أيها العبد؛ وكيفا يرضيك فتحفك رحمته، ومما سخر له ملائكة قوامين. وحين قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

وإذ ماذا تريد أكبر وأفضل وأعظم وأجل من ذلك، وحين سخر لك ربك ملائكته أن يدعوا لك ربهم؟

إن هذا المعنى، وحين يطلع به موجب إخبارات وموجب رضا عن ربنا عنا.

وماذا تريد أيها العبد، ومن بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، خبرا عن ربه تبارك وتعالى: إذا كان ثلث الليل أو شطره ينزل الله إلى سماء الدنيا فيقول هل من سائل فأعطيه هل من داعي فأستجيب له هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له حتى يطلع الفجر^(١).

إن الله تعالى يستحسنا، ويتنزل أجلنا، نزولا يليق بجلال عظمته وقدرته وعظيم سلطانه؛ ولأننا ماشون سائرون في هذا الطريق الذي يقول لنا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وحين قال ربك الرحمن من بعد هذه المقدمات العظيمة الجليلة الفضيلة النبيلة فضلا منه وجودا وكرما سبحانه ربي في علاه ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

وبه فأنت تريد قبول دعائك، ومنه فاستجب لربك، وإن هذا مطلق الأدب مع الله تعالى.

وإذ كيف يبسط يديه برحمته، وعبيده في طريق غير طريقه، وعلى سبيل دون سبيله، وينتهجون نهجا لا كنهجه.

(١) تخريج كتاب السنة، الألباني: ٤٩٨، خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وإذ أنت تريد العطاء والمن والفضل وإجابة الدعاء، فاستجب.

وإجابتك ربك، هي الوقوف عند حده، فلا تتعدى.

إن ذلكم هو الموجب لقبول دعائك؛ دلالة أن يأتي هذا النص بعد قوله

تعالى ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وانظر كيف تكون الإجابة أيضا من موجبات خير لك، ومن قول الله

تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فإنك وحين تستجيب، فقد انتقلت من حاله موت محقق إلى وضع

وحالة حياة محققة.

وهذا الذي يتسق مع قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: مثل الذي

يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت^(١).

وأن يوحده ويقف على أمره فلا ياتمرن بغير أمره وعند نهيه ينزجر،

فإن هذا هو الحي ودونه هو الميت.

فليستجيبوا: وهذا أمر فيه السلطان والحكم والأمر، واذ لا معقب

لحكم ربك، ولا أمره ولا نهيه.

وحين يكون العبيد على هذا الصراط، فلسوف تغدق عليه السماء

برضاء رب الأرض ورافع السماء.

(١) صحيح البخاري: ٦٤٠٧

لماذا لا يستجاب لنا؟ نحن ندعوا، ولربما لم يستجب لنا، ونحن لا نسأل أنفسنا هذا السؤال: هل نحن على جادة الطريق، ومن ثم إذا دعونا يستجاب لنا؛ ولأن هذا الذي قد أتى من بعد الأمر بالدعاء، والحث عليه، والثناء على الداعين، وحين أمروا ومن قوله تعالى (فليستجيبوا لي)، أي يطيعوني فيما أمرتهم.

بلاغة مليحة: وحين جاءت الاستجابة قبل الإيمان، ولربما كان الإيمان هو السابق للاستجابة!

ولكنه ولأن هذه الاستجابة هي الدالة على صدق الإيمان، فقد تقدمت على ذكر الإيمان!

وهذا هو الفيصل في مسألتني الأمر والنهي.

التكليف على قدر الوسع: فأنت تجيب ما تسمع، وحين تعلم أن كلمة الإجابة نفسها، قد أتت من الطاقة والوسع.

ويكأن ربك لم يأمرك إلا بما كان من وسعك أن تأتيه أمراً أو ان تنتهي عنه.

وليس لنا أن نتهم السماء أنها لم تستجب بقدر ما نتهم أنفسنا وحين نضع أنفسنا أمام هذا السؤال: هل نحن نستجيب لربنا؟

نحن نقرأ في التنزيل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ولربما قرأ قوم القرآن العظيم ولما لم يشفوا! ولربما لم يكن لهم سبب شفاء!

إن هكذا يحدث ولما كان عندنا عوار في أدائنا مع ربنا.
وتصحيح هذا المسار واجب مطلوب.

ولننظر بعدها كيف يكون عطاء السماء لنا.

إن مسألة الإنابة، ومسألة الاستجابة لله تعالى وللرسول صلى الله عليه وسلم هما الفيصل. ومنهما تتحقق مسألة الإجابة.

ومن ههنا جاء النظم بهذه الاستجابات؛ دلالة على الإيمان بالله عز وجل، ومن بعد ذكر الدعاء.

إنك إذا نظرت نظرة فيها تحصن ودرس ظاهرين، لا تحتاج إلى كثير علم بقول الملائكة الكرام ﴿... رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

ولأنه ومن حس الملائكة عليهم السلام لابد أن تسبق المغفرة التوبة.
ومن هكذا ترتيبهم المغفرة على توبة العبيد، ومن نهجهم سبيل ربهم الحميد.

المبحث الثامن: من موانع إجابة الدعاء

وها أنت قد رأيت وكيف كان نور قرآننا، وكيف كان بهاء كتابنا.

ولما قد أوقفنا هكذا آية واحدة، على هكذا قرب ربنا بنا، ولما قد أوقفنا على إجابة ربنا دعاءنا. ويكأنك وحين تعلم هاتين فقط، وحسبك تعلمهمان فقد حزت الخير العظيم.

واذ وماذا يرنو عبد وإلا وحين يكون ربه منه قريبا؟ وإذ وماذا يريد عبد ولما كان ربه له سميعا مجيبا؟

إن هاتين الخصيصتين الميزتين اللتين اتسمت بهما هذه الآية لتوقفنا على كم يجب أن نحمد وأن نشكر هذا الرب العظيم؛ ولما كان منا قريبا، ولما كان لنا سميعا مجيبا.

عظم شأن الإخلاص: وحين تتلمس سبيل دعائك ربك عز وجل، ليكن أحدنا وقافا عند إخلاصه لربه في دعائه، وعند التزام شرعه، وسنن نبيه صلى الله عليه وسلم، في دعائه، وألا يعتدي في دعائه.

فأنى يستجاب له؟!

ودلك على هذه المنظومة السالف ذكرها قول نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ومما رواه الإمام مسلم رحمه الله تبارك وتعالى: أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم}

[المؤمنون: ٥١]، وقال: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم} [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟ (١)!

فذلك على كم هي موانع قبول إجابة دعائك.

إنه وما أحوجنا إلى ربنا الرحمن! فنطهر قلوبنا من دنس أكل الحرام، ومن رجس شرب الحرام، ومن داء الغذاء بالحرام، ومن ألم اللبس من حرام! إن هذه منظومة شر!

وحين يعيشها عبد يقشعر بدنه؛ وأن كيف هكذا تخويف عظيم من الرسول صلى الله عليه وسلم، وإذ كيف يدعو من ثم عبد وهو هذا المسكين موحول موروط؟!

إنه وحن يرفع عبد يديه إلى مولاه تعالى وهو إذ غارق في حرام تائه فيه وإلا أنه يمكن أن يعد هذا استهزاءً بالرب العظيم!

وحين يقدر العبد ربه حق قدره، يقف على جادة تأخذه هيبة ورجفة ورغبة ورهبة، وهو أن يخلص نفسه من شائبة من حرام.

وما بالك ولما يعرف عبد عن نفسه، أنه غارق في الحرام؟

فكم من رشوة هنا، وكم من ربا هنالك، وكم من سطو، وكم من غصب، وكم من تحايل!

(١) صحيح مسلم: ١٠١٥

وإذ كيف يحسب العبد أنه ذكي عبقري؟!

إن المسألة ليست هكذا ولأنه ومن ذا الذي تخفى على مولاه خافيته؟!

إن هذا مطلق الوباء والبلاء.

إن الله تعالى يحب لك الخير كله، فأمرك به، ولا يحب الشر فنهاك عنه؛
كيما تطهر.

إن هذه كلية نرجوا أن نقف عندها كثيرا؛ ولأنها فيصل في حياة العبد،
وحين يريد أن يكون عبدا.

من صور التعدي في الدعاء

إن التعدي في الدعاء ألا يلزم العبد نفسه بآدابه، ولما كان من آدابه ألا
يدعو بإثم، أو قطيعة رحم، ومن إيجاز المسألة أيضا، ولما كان التعدي في
ذلك علامة فارقة من علامات الخروج عن إلفه وآدابه، ومن ثم جاء هكذا
الأمر النبوي، والتوجيه العالي السامق، لهكذا شأن وأن يربأ مسلم عن نفسه،
أن يسري نحوه أو أن يقرب منه ولو شيئا.

وهذا الذي جاء منه الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمها
هذا الدعاء : اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ، ما علمت
منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ، ما علمت
منه وما لم أعلم ، اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك ،
وأعوذ بك من شر ما عاذ به عبدك ونبيك ، اللهم إني أسألك الجنة وما
قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من

قول أو عمل ، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرا^(١). وحديث:
سألت عائشة عما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به الله، قالت:
كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم
أعمل^(٢).

والتضرع والخفية لازمان لداعية النوازل. وإذا انفك أحدهما أو
كلاهما، كان هذا أيضا تعديا في الدعاء.

وتضرعا أي: خشية وخشوعا ولين جانب وإظهار حاجة، وذلا وفقرا
الى الله تعالى، وإخلاصا له ومتابعة لشرعه.

وخفية أي: سرا. وحيثما استطاع عبد أن يؤدي عملا أو أن يدعو
دعاء من سر فكان أولى له؛ وتطبيقا لهذه الآية الكريمة، ولهذا الحديث
الشريف.

من طرف التعدي في الدعاء: ومما يحكى من طرفة ما رواه سعد بن
أبي وقاص: سمعني أبي وأنا أقول اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها
وبهجتها وكذا وكذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا
فقال يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون
قوم يعتدون في الدعاء فإياك أن تكون منهم إنك إن أعطيت الجنة

(١) صحيح ابن ماجه، الألباني: ٣١١٦

(٢) صحيح مسلم: ٢٧١٦

أعطيتها وما فيها من الخير وإن أعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر^(١).

وكذا ما جاء أن عبد الله بن مغفل، سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض، عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بني، سل الله الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء^(٢).

وها قد تضافرت الأدلة المستجمعة على بيان أهميه هذا الدعاء دعاء ربنا تعالى، ومن إخباره تعالى ووعد إجابة من دعاه.

بين المطلق والمقيد

وقف الناس موقفاً، وقالوا هذا لفظ عام مطلق مقيد بموانع قبول الدعاء التي أنف ذكر طرف منها.

ومقيد بقوله تبارك وتعالى أيضاً ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١].

فإن الله تعالى قدم المشيئة دلالة أنه توكيدٌ لهكذا لموانع قبول الدعاء. وليحذرها عبد مطيع ولا يرتكبن مانعا يمنعه من أن يرفع دعاؤه إلى السماء.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾: تريدون أن ترشدوا؟ آمنوا واستجيبوا.

(١) صحيح أبي داود، الألباني: ١٤٨٠

(٢) صحيح أبي داود، الألباني: ٩٦

أوقف الله عز وجل الرشد على هاتين: الاستجابة والإيمان.

إن إجابة ربنا عز وجل، وحين الوقوف على أمره ونهيه وحكمه وشرعه وسبيله ونهجه وطريقه وقرآنه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين المهديين من بعده صلى الله عليه وسلم، وإن هذا هو الطريق الذي منه لعلهم يرشدون.

أي: لا رشاد إذًا، وحين تنكب هذا المنهج.

والرشد هو ذلك إصابه الحق، والوقوف عليه، واتباعه، وإصابة الحق وإنما تكون بمعرفته، وعلمه، والوقوف عليه، واتباعه.

عموم رشد بلا استثناء: لعلهم يرشدون كلهم، فلا يستثنى منهم أحد وحين قد أجمعوا وانتصبوا وقعدوا على هذا الطريق.

مفهوم المخالفة: إن عدم الاستجابة قرينة على عدم الإيمان. وهذا الذي منه يكون مفهوم المخالفة لهكذا الرشد، أي لعلهم يغوون.

فإن الغوي والضلال والتهيه سبيل من لم يستجب.

وصحيح ونعم إن الاستجابة مكلفة، وحين جاءت من هكذا الفعل استجاب أي استفعل.

إن هذا البناء المزيد السداسي، وحين كان أصل الفعل ثلاثيًا، وإنما تحول إلى صورة السداسي منه، ومن سبب هذه الثلاثية (١ - س - ت).

فكان منه لا شك بذل جهد، ولأن الأجر يكون على قدر المشقة، وحين يبذل الناس جهدهم ومهجهم طاعة ربهم، واستنهالا للخير الذي قد وعدهم به ربهم، وحين قال ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

وليس من غيرها هنا يرشدون، بل يتيهون، ويغوون في دنياهم وفوق أنهم يتحسرون أخراهم. **النكدان:** وهكذا فيجمع عليهم نكدان:

١- نكد العوز والحاجة والفقر والمرض والتهيه والضلال والتشتت وعدم الراحة وعدم الطمأنينة في هذه الدنيا.

٢- ثم ما يتحسرون؛ لقاء تنكبهم لهذا المنهج، وحين يردون نار جهنم سعيرا.

أما أولاء الذين استجابوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، فقد أحيوا أنفسهم سعادة وفوزا وهناءة وفرحا في الدنيا، ثم ما أعد للمتقين من نعيم مقيم يوم لقاء الله تبارك وتعالى رب العالمين.

الفصل الخامس

وفيه مبحثان

المبحث الأول: لطائف النشر في فضل الليالي العشر

(١)

قال الله ﷻ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ** [القدر: ١ - ٥].

إن هذا تنزيل حكيم من ربنا العليم الحكيم.

وهذه مناسبة العشر الأواخر من شهر رمضان، وهي هذه العشر التي أخبرت عنها أمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا دخلت العشر شد منزره وأيقظ أهله وأحيا ليله.

فعن عائشة أم المؤمنين: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد منزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله^(١).

وكان من حسن الطالع أن يتذكر كل مسلم هذه العشر وفضلها، ومن خبر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذا.

وإذ لو لم يكن لها فضل هذه العشر ما أنبات نبأها هذا.

(١) صحيح البخاري: ٢٠٢٤

ولما أخبرت خبرها هذا ويكأننا أيضا نستجتي هذه الحقيقة. وهذا الفضل الرباني على هذه الأمة. وحين قد أنزل في هذا الشهر القرآن العظيم. إذ كان منه ليلة القدر، التي ذكر القرآن. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، أي: القرآن العظيم، في ليلة القدر.

وكان من حسن الطالع أن تبهم، وأن تخفى، وأن توارى، وألا تظهر ليلة القدر؛ منافسة ومسابقة ومسارعة منا معاشر المسلمين إلى فضل ربنا تبارك وتعالى.

ومنه يكون البحث ليس في استجلاء متى تكون ليلة القدر، وبقدر ما يكون استجلاء في كيف تحيا ليلة القدر، ومن أولها هذه العشر إلى آخرها. وكان قولها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أحسبه كافيا، شد مثزره كناية عن هذا الاستعداد المصحوب بنشاط.

وهو ذلكم النبي الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وإذ إنه ليفعل ذلك شكرا لمولاه.

وكما قد أخبر يوما بهذا الخبر: أفلا أكون عبدا شكورا.

فعن المغيرة بن شعبة: قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه، فقبل له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبدا شكورا^(١).

(١) صحيح البخاري: ٤٨٣٦

فإن الانطراح بين عتبات الألوهية شكرا لمولانا الله عز وجل هو
ديدن المسلم. وإن كان هذا في حق النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولأنه أعرف
بربه تعالى، وأخشانا وأتقانا له.

ويكأنه يكون في جانب أحدنا أدعى؛ ومن جانب التقصير، وليس من
جانب المعرفة بالله تعالى.

وإلا فأين نحن من هذا النبي صلى الله عليه وسلم؟!

ولكنك وحين تقيسها من باب أنه صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما
تقدم من ذنبه وما تأخر. وإذا كان في مثل هذه الحال قد شد مثزره وأحيا
ليله وأيقظ له ليله. في هكذا تناغم لغوي، وإبداع بلاغي، وكنايات عن هكذا
استعداد ونشاط ومسارة ودأب لا يعتوره خلل، ولا وهن، ولا كسل. من هذا
النبي صلى الله عليه وسلم.
وما بالك بي وبك.

ويكأنه ولما لم ينزل فينا قرآن هكذا. فكان حريا أن نشد مثزرننا، وأن
نحيي ليلنا، وأن نوقظ أهلنا؛ استمطارا لرحمات ربنا، واستنزالا لعفو
خالقنا، وجود ربنا ومبدعنا تبارك وتعالى.

اللهم انك عفو تحب العفو فاعفو عني: هكذا أيضا، وحين: سألته
صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها إن وافقتها فبم أدعو؟ قال قولي
اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني^(١).

(١) (أعلام الموقعين، ابن القيم: ٢٤٩/٤، خلاصة حكم المحدث: صحيح

إن غاية كل مسلم هي أن يعفو ربه عنه، وإنا لنقول، ومما قال نبينا صلى الله عليه وسلم، وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني.

ولست أروح كثيرا، وكما أنف في ماهية تحديد ليلة القدر؛ ولأن عندنا فسحة من وقتها طيلة العشر. فنجتهد إيقاظا لأهلينا، وإحياء لياalina، وشدا لماأرنا.

ويكانك وحين تعلم، وأنت تعلم هذا الصفاء، وهذا النقاء، وحين قد تلبست بصوم، وقيام عشرين يوما مضت.

ويكأن هذا كان تخليه للقلب والذهن، وإن شئت فقل: عصف ذهن؛ استعدادا لملاقات هكذا العشر.

تكون القلوب فيها منفتحة إلى مولاها، راضية به ربا وبدينه إسلاما وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا.

ويكأنها أيضا تتوق وتشرئب أعناقها هكذا، حسن ظن بربها، أن يجعلها من عتقائه من النار. في كل ليلة من ليالي هذا الشهر. ولا سيما عشره الآخر.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: هذا و (إن) وما فيها من تأكيد الإنزال، وهذا ضمير الجمع (إنا)، في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، الذي يعود على ربنا تفخيما وتعظيما وتقديسا وتنزيها وتكبرا؛ ولأنه تبارك وتعالى أهل الثناء والمجد وكلنا له عبد، وهو الرب ذو السلطان والأمر والنهي والنظام والشرعة

والطريقة والسبيل والمنهاج. الذي قد أوحاه إلى جبريل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في هذا القرآن.

ولما قد جاء هكذا في منظومة سحرها بياني بلاغي بديع جميل حسن إلف مألوف.

وحين جاء التعبير بضمير الجمع عن رب العزة والجلال، تعظيما لربنا تعالى.

ثم يأتي التنزيل أيضا ذكرا وبيانا له بضمير الغيبة المتصل ﴿إِنَّا﴾: أي هذا القرآن، وهذا الضمير أيضا فيه من تفخيم القرآن وتعظيمه. ما يشي بأن يكون نظام حياة ومنهاج عمل وفعل ولحياة هنيئة للناس أجمعين.

علو ربنا تعالى واستواؤه: ويدل هذا على أن القرآن العظيم، قد تنزل من أعلى إلى أدنى، وفيه دلالة على علو ربنا تعالى.

ولأن ربنا قال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. وقال تعالى ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ [النجم: ٧]. وهذا خبر من الله تعالى. ولأنه كان جبريل في الأفق الأعلى، وكذا نبينا صلى الله عليه وسلم يوم إسرائه ومعراج، ولأن هذا من مقتضى الاستواء والعلو.

وبينا أننا في غير مرة أن هذا السلطان والرحمة بمثابة جناحي طائر لا يقص منهما جناح وإلا سقط الطائر.

السلطان والرحمة: ومنه يكون السلطان رحيمًا، وهذه تنبيه وتذكير وتعليم لسلطين الزمان أن يكونوا هكذا ومن سلطان وأن نعم، وإلا أننا

نستجيش هذه الرحمة من كنفات هذا السلطان لله. ومنه يكون الولي والراعي والحاكم هكذا أيضا.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: وما كانت هكذا ذات قدر، وإلا لقدرها وعظم شأنها.

وقد التمست عظمتها وقدرها؛ ولأن الله تعالى أنزل فيها القرآن وأنها تنزل فيها الملائكة أيضا ومن قبل ومن بعد يتنزل ربنا على في ثلثها الأخير وكما عهده تعالى شأن سائر الليالي.

فاجتمع جناحا طائر آخران هما: تنزل الله، وتنزل القرآن.

وكان من هذا برهان عظمتها وشرفها وقدرها فوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]. وهذا من بركاتها وهذا من قدرها وهذا من شرفها.

ولماذا الليل؟ والليل سكون ودعه وهدوء؛ ومنه يتنزل مر السماء، ومنه نستشف ونستشرف حين إصدار القرار أو توجيه الأمور، فنفضل أن يكون على هكذا وقت.

فإن الله عز وجل وحين أنزل القرآن أنزله ليلا، دلالة حنو الليل وهدوئه وسكونه.

وهو الذي يفسح مجالا وطقسا معتدلا ملائما أمام النفوس، كيما تنتهيا لإصدار قرارها رتيبا.

وإذ ليست القاعدة هي تنزل القرآن ليلا فقد ثبت تنزله في ليل وفي
نهار أيضا، وإنما قلنا هذا؛ ولأنه أول مرة كان شأنه هذا.

إن من قدر وشرف ليلة القدر، أنها يفرق فيها كل أمر حكيم، فينزل
الله ملائكته بقضائه وقدره وما يحصل في العام، وهذا الذي منه كان تنزل
الملائكة أيضا.

والملائكة أنفسهم لا يتنزلون وإلا لأمر هام عظيم، ولا سيما ولما يكون
مصحوبا بسعادة البشر.

ومنه ولما كان يفرق فيها كل أمر رباني حكيم، وهذا يدل على عظمة
الأمر والأمر معا.

وجاء الفعل يفرق مبنيًا للمجهول؛ تعظيما، وحين غيب الفاعل للعلم
به، وتعظيما له.

ولما كان أمر الله موصوفا بالحكمة، والله تعالى هو الحكيم، ولأن كل ما
يصدر وما ينزل عن هذا الرب ليست فيه الحكمة وحدها وبقدر ما إنها
الحكمة نفسها!

وهذا يشي باستجماع الخير كله، والحكمة كلها لا بعضها. وهذه من
بلاغة أداء قرآننا.

أمرا من عندنا: والله تعالى يكرر الأمر فيها، وحتى إذا راح بعض،
ويقولون إنه يسوغ الأمر من غيره تعالى!

والآية باب في الرد على هذا وطيه!

المبحث الثاني: لطائف النشر في فضل الليالي العشر

(٢)

وقد كان هذا الحوز الذي قد شرفنا به لقاءنا مع هذه الليالي المباركة؛
ولهذين الفضلين ولهاتين الخصيصتين:

١- كوننا في العشر الأواخر من رمضان.

٢- وكوننا نعيش ليلة القدر.

من أسرار عدم تحديدها: ومنضافا إلى ذلك يوم أن أخفيت عنا؛
استنهاضا لطاقتنا وجهودنا وبذلنا واحتسابنا عملنا لربنا تبارك
وتعالى.

ومنه كانت هذه الإشادة القرآنية أيضا بليلة القدر.

وأعلمك ربك تعالى موجب هذه الإشادة ما قد رأيته ذكرا حسنا
ثلاث مرات لليلة القدر.

بلاغة التشويق: في هكذا تضافر وتزاحم لذكر ليلة القدر؛ تأكيدا
لهذا الشرف، وإمعانا في هذا القدر، وبثا لداعية التشويق لديك أيها
المستمع القارئ التالي أيضا.

ولما رأيت من ذات نفسك سؤالا ملحاحا مقتضاه: ما هي ليلة القدر
التي جاءت هكذا مسوقة هذا التسويق القرآني العظيم، ومعلنة هذا
الإعلان الرباني الكريم، ومعلمه هذا الإعلام الحكيم، من اللطيف الخبير
الحكيم أيضا.

إن هذا كله استنهاض لطاقتك أيها العبد واهتماماً بك، وتشريفاً لك أيضاً. وحين كنت أنت المخاطب بهذا التنزيل.

وقد مر بنا ذكر أن اجتناء التنزيل في الليل دلالة على حنو الليل وهدوئه وسكونه.

وينضاف إلى ذلك قول ربك الرحمن عز وجل ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

تنزل القرآن: وليس يعني ذلك أن القرآن لم ينزل إلا ليلاً، وكما أنف، فقد نزل القرآن جملة واحدة ليلة القدر من السماء السابعة إلى السماء الدنيا.

وأما وحين نزل، وهو هذا التنزيل الثاني، وإنما كان ذلك للحوادث والأحداث والأمور التي وقعت والوقائع التي حدثت.

فيتنزل القرآن علاجاً وتلبية لها. وكذا تثبيتاً لقلب هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ ومن قول رب العزة والجلال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقد سبق ذكر ذلك تفصيلاً في شرحنا وبياننا وسوقنا وتأويلنا لقول الله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۚ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ

الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ [البقرة: ١٨٥].

هذا وقد تناولت هذا تفصيلا أيضا في كتاب (منهج عبد الله بن عباس في التفسير).

إن هذا هو الإفصاح القرآني وحين أراح بالك وليضعك على ما أنت كنت منتظرا له انتظار تشوق فيسعفك القرآن بيانه المريح السني؛ ليقف بك ربك عز وجل على هكذا فضل، وحين كنت بين جنبات وثنايا وحنايا أسلوب التفضيل:

- ١- المفضل هو ليلة القدر.
- ٢- واسم التفضيل هو خير.
- ٣- والمفضل عليه هو ألف شهر.

ويكأنك وحين تقوم ليلة القدر إيمانا واحتسابا وتوافقها وتقول ومما قالت عائشة أم المؤمنين:، من قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني.

ويكأنك قد حزت فضلا أحسن وأعظم من عمل تقومه ألف شهر.

ويكأنك تستحضر أيضا امرا عجبا!

ما معنى خير ألف شهر؟ وحين قاسوها أربعة وثمانين سنة تقريبا يعني عمر آحاد الناس عمرا كاملا، ولما يفوزه في ليلة واحدة أجرا!

واحسب إن شئت كيف كان فضل ربك عليك.

ويزداد الأمر قيمة وحين تحسب أنها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وليتضاعف الأجر ولعله صعب الحساب حينئذ!

ولم يحدد لك ربك عز وجل كنه وطبيعة هذه الخيرية. فقد جاءت عامة مطلقة؛ كيما تشيع في الافق وتنشر خيرا عميما عظيما من الله العظيم.

حضور الملائكة ليلة القدر: إن ليلة القدر فيها من العظم والقدر والتشريف والتقدير والتعظيم الرباني أن تحضرها الملائكة.

بل أي عدد من الملائكة، وحين جاءت هكذا جمعا؟!

ولأن مقتضى آل التعريفية هو ذلكم استغراق من العدد وإن شئت فقل.

وحين يعاش هذا المعنى ويستحضر، من هكذا مسجدك الذي تصلي فيه، وكما كان مزدحما بملائكة ربك احتفاء واحتفالا معك بليلة القدر! ومن هنا كانت ذات قدر وشرف وعظم منه تشريف ربها وإحضاره ملائكته.

تنزل الملائكة: الفعل تنزل يوحي بأنهم ينزلون نعم، ولكنه يوحي بأنهم منزلون لأنهم يقولون عن أنفسهم محترمين لأمر الله ونهيه، وحين قال تعالى عن لسانهم ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۚ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

هذا هو القيد الذي نتقيد نحن أو يجب أن نتقيد به، وألا نخرج عن أمر ربي شيئاً ولا نحد بعد حده حداً.

﴿تَنْزَلُ الْمَلَكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾: هذا نص عام يشمل الملائكة عليهم السلام، والروح هو جبريل عليه السلام، وهذا خاص.

وقد علمنا وصفاً له يوماً من وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حديث: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه، هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير} [الأأنعام: ١٠٣]، {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب} [الشورى: ٥١]. ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: {وما تدري نفس ماذا تكسب غداً} [لقمان: ٣٤]. ومن حدثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك} [المائدة: ٦٧] الآية، ولكنه رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين^(١).

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: وهذا موجب أنهم لا يتزحزون ولا يتنقلون إلا بأمر ربهم، وإلا بإذن منه تعالى ومشيئته.

إن هذا مقتضى من مقتضيات خلقه تعالى لهم.

(١) صحيح البخاري: ٤٨٥٥

وهكذا نحن نشيد هذه الإشادة ونفيد هذه الإفادة ويوم ألا نقول قولاً
ولو واحداً أو أن نفعل فعلاً ولو واحداً وإلا من أمر ربنا تعالى.

سلام: إن ليلة القدر كلها سلام وعطاء وفوز وهدى وأمن وأمان
وسلم وسلام ومن وعطاء وكرم وسخاء من الله تعالى.

وهكذا جاء الضمير المنفصل (هي)، العائد على ليلة القدر.

ويكأنك تعيش السور كلها ليلة القدر. وبما يحمله هذا الضمير
المنفصل من جلال وجمال ومن تقريره بها واهتمامه بها أيضاً.

قيام ليلة القدر

ويكأنك تقوم الليل ولا سيما ليالي رمضان، وبخاصة ليالي العشر
الأخيرة منه، ولا سيما ليلة القدر منها.

وحين قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصفا لقيام
رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن خبر أبي سلمة بن عبد الرحمن:
أنه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله
عليه وسلم في رمضان؟ فقالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة؛ يصلي
أربعاً، فلا تسلم عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً، فلا تسلم عن
حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً. قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله،

أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تَوْتَرَ؟ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، إِنْ عَيْنِي تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي^(١).

وهذا حديث معتمد لمن يقوم رمضان بإحدى عشرة ركعة.

والذين يزيدون معهم فرصة أيضاً؛ ولقول النبي صلى الله عليه وسلم
وحين: سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: ما ترى في صلاة
الليل؟ قال: مثنى مثنى، فإذا خشي الصبح صلى واحدة، فأوترت له ما صلى.
وإنه كان يقول: اجعلوا آخر صلاتكم وتراً؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم
أمر به^(٢).

(١) صحيح البخاري: ١١٤٧

(٢) صحيح البخاري: ٤٧٢

الفصل السادس

تفسير قوله تعالى

﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۚ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۚ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]

وفيه أربعة عشر مبحثا

المبحث الأول: الشخصية الاعتبارية للآية الكريمة

هذه هي الآية السابعة والثمانون بعد المائة من سورة البقرة المباركة.

وهي آية حافلة بكثير من المعاني والبلاغة والبيان والحسن والبدیع.

كثافة معنى: وكذا غزيرة متوافرة على جل من أحكام هذا الصيام الذي كان ولا يزال فرضا وعبادة لهذا الرب العظيم المتعال تبارك ربي في علاه.

غير أن نظرة شاملة حول هذه الآية وكما هو الشأن في كل وجميع آي القرآن العظيم الذكر المبين الحكيم الكريم.

الصفة المميزة: فكل آية لها شخصيتها المتسمة بها، والتي تميزها عما عداها من غيرها من آي القرآن أيضا.

اختصاصه تعالى بالبيان: ويكأنك وحين تقرأها وحدها، وحين لامست معانيها الجميلة العطره الطيبة العبقه شغاف قلبك وإنك لتقول إنه لقرآن حكيم من لدن حكيم مجيد حميد. وهذا أولا.

وأما ثانيا: ويكأنك تقول أيضا إن هذه الآية تعالج حكما وأحكاما كان من لزوم الصيام أن توجد وأن يرد الله تعالى حكمها وحين لم يترك لأحد تولي علاج هذا الجانب وإلا هو وحده تبارك وتعالى.

كل مؤتلف: ولكنه تعالى وحين فصل ذلك وإنما قد امتن به علينا في مجموعة ومنظومة متكاملة مترابطة متتالية وبحيث كانت مجمعة في بابها من أي الذكر الحكيم.

بمعنى أن الله تبارك وتعالى جمع الأحكام أمانا ولم تشتت أذهاننا ولم تفرق أفكارنا وعقولنا بحيث نتلمس هذا الحكم من هنا ونتلمس هذا الحكم من هناك ففتبعثر أفكارنا وتتفرق وتشتت وتختلف وتتخالف.

وإن شئت فانظر واحكم واحمل واشكر واستغفره تعالى لهذه المنه وحدها.

وأكرر أن الله قد حباك بهكذا أحكام الصيام متجمعة مستجمعة أمام عينيك وبين قبضة يديك في ثلة من الآيات العظيمة المترابطة المتتالية ولم يفرق عليك شملك ولم يختلف عليك ذهنك! وهذه آية قمنا بالدرس لهذا القرآن ومن يسره أيضا.

وهذا ملحظ عام في جميع أحكام ديننا ولا سيما هذا الصيام الذي نحن بين يديه وهذه واحدة. والواحد الأخرى والتي تتسم بها شخصية هذه الآية وكما عداها من شخصيات لكل الآيات القرآنية في هذا القرآن العظيم.

فإن لهذه الآية شخصيتها التي تعبر وتتسم وتسمو ببيان أحكام هذا اليسر الذي كان فضفاضاً متناغماً مع هكذا فريضة الصيام.

ومما أنف وحين ابتدأنا رحلتنا المباركة مع هكذا آيات الصيام تأويلاً وشرحاً وتطوفاً ودوراناً وبياناً وحين حفلت بيسر ربنا وتيسير خالقنا.

عمل الضمائر: وكان منه هذا الذي نحن بين يديه وسم باليسر ورفع الحرج وثالثاً تتسم هذه الآية وكما سوف نرى اتساماً ملحوظاً مدهشاً بتوجيه الخطاب إما بالضمائر المتصلة أو بالمنفصلة.

بلاغة الخطاب: وحين جاء هكذا هذا الخطاب فيه لفت انتباهك وتقدير لك واعتناء بك واهتمام بك أيضاً وتقرير لقيمته هو هذا الإنسان في الوجود.

ولما كان هذا الإنسان هو محلاً لخطاب رب العزة والجلال بالتكليف وكذا الجن، من قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لكن باعتبارنا - نحن البشر - على ما غلب نقولها فإن هذا الخطاب فيه تكريم أيما تكريم للعبيد من الإنس ومن الجن أيضاً. وحين كانوا محلاً وموضعاً لمخاطبة القرآن لهم.

وأما رابعا: فإن هذه الآية ولما كان الخطاب مظللتها وبيتها وركنها وعشها وإلفها وإنك أيضا لتشعر بالسكينة والإلف، وحين قد رحمك ربك، ولما قد بين لك، ولم يتركك هملا، ولم يدعك جاهلا، لتعبد الله بذهنك وفكرك وعقلك وخيالك تصيب أم تخطئ.

وهذه منة أخرى يحمد ربنا عليها أن حباننا بالبيان والذكر؛ حتى لا نقف حيارى، فيروح بنا هذا يمنة وهذا يسرة. وهذا تفريطا وهذا إفراطا.

وحين نقف على هذه الجدة وحدها لنحمدن ربنا ولنشكرن إلها.

إن الله تعالى وضع بين أيدينا هذه اللمسات البيانية والأحكام القرآنية، ولم يدعنا لجهلنا وخيالنا، ومن ثم ليتسق ذلك ويتفق مع كوننا أمة واحدة.

والأمة الواحدة لا تكون واحدة إلا إذا كانت على منهج واحد يضبط سلوكها وينظم أمورها.

وهذه حكمة قرآنية جيدة جدا.

ويكأنك ولما لم يكن ذلك لتستشعرن هذا الخطب العشوائي، والذي تكون من نتيجته أن الناس ليسوا بأمة واحدة وحين يروح هذا شرقا ولما يذهب هذا غربا ولما ينحرف هذا شمالا ولما يتجه هذا جنوبا.

وهذه حيثية جيدة أيضا يحمد عليها هذا الرب المتعال.

وأكرر ليس هذا فقط في أحكام الصيام بل في جميع الأحكام التي قد حباننا بها ربنا الرحمن الرحيم.

المبحث الثاني: سبب النزول

هذا التحليل لا بد له من مناسبة. ويكأنك تشعر فيه أن شيئاً لم يكن حلالاً فأحل.

سبب النزول: وهذا الذي نقف عليه، ومن حديث رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى مناسبة نزول هذه الآية أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تبارك وتعالى عنه كان عند النبي صلى الله عليه وسلم وانصرف ثم أفطر ونام ثم أراد أن يأتي أهله فقالت له لقد نمت يقول ظننت أنها تتعنت فأتيتها ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قد حدث. وإن غيره حدث لهم ومن هذا العنت وهذا النصب؛ ومنه أنزلت هذه الآية الكريمة.

وإنك تستشرف وتستدعي أن هذا الأمر لم يكن حلالاً.

بمعنى آخر كانوا إذا أفطروا أحل لهم كل شيء حتى نساؤم، إلا إذا ناموا و صلوا العشاء، فليس يحل لهم فيما بعد ما كان من طعام وشراب ومباشرة نساؤهم.

وهذا مر فيه نوع مشقة ويمكن أن يبعث على التحلل من الريقة لدى كثير من الناس.

وهذا الذي حدث مع الفاروق عمر رضي الله عنه.

ولما كان الإسلام ومن رحمته ويسره أنه جاء مراعيًا للفطرة ومراعيًا لحاجات النفوس

ولما كان في النفوس هكذا من ضعف فأراد ربك الرحمن عز وجل أن يرفع عنها هذا الأمر

ومن ثم تنزلت هذه الآية الكريمة.

لطائف من واقعة الفاروق: وأقف وقفة عند هذا السبب النزول شأن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تبارك وتعالى عنه. ولما حكى أن امرأته قد تعنتت ولا قول رفضت، وإلا أنه كان قد أتاها.

وأن تراعي ظروف زوجة ظروف زوجها وحاجاته؛ ولأنها ليست تدري ماذا قد أعن له.

ولأن داعي الفطرة غالب؛ ومنه فإذا طلبت المرأة لفراش زوجها فلا تتمنع ولا تتعنت بل تلبي طاعة لمولاهما ثم قياما على حق زوجها أيضا.

ويكأن هذا الأمر يعوزه اتفاق وانسجام وتفاهم حول هذه المسألة دون عنت من كلا الطرفين

سبب نزول آخر: وثمت سببا نزول آخر حكى عنه أن أحد الصحابة الأخيار كان يحتطب ويعيش من عمل يده وكده وعرقه، ثم لما رجع إلى بيته ثم سأل أهله هل عندكم من طعام قالت لا ولكن دعني أتطلب لك يعني أبحث لك.

وهذا عنوان الإلف أيضا بين الزوج وزوجته وأنت تراه رجلا كد وعمل ونشط وكافح وجاهد كيما يعيش حلالا ليأكل من عرق جبينه، ومن كد يده،

ومن بعد فضل ربه عليه وجوده وإنعامه، وخير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوهز

ولأن اليد العليا خير وأحب الى الله تعالى من اليد السفلى

حنو سؤال: هل لديكم من طعام؟ بهكذا سؤال حني هني رضي. ليس فيه عنت، وليس فيه شدة مع أم ولده وزوجه. وبهكذا إلف تحسه من هذا السؤال.

وحنو إجابة: وحين تجيبه بكل عطف وحنو وإلف أيضا. وحين كان جوابها: دعني أبحث لك، يعني: حاضر!

إن هكذا تبادل لهكذا المشاعر في البيت المسلم منشئ أسرة مسلمة حانية راضية يحومها العفو ويسيجها الحنان ويرتضيها الإلف ويشيعها ذلكم الحب والود والعطف والانسجام والوئام والترابط!

وهذا يدل على كم كان حال صحابة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحين كانوا يعيشون هكذا عيشا وإنما كانوا يصبرون ويتصبرون في سبيل ربهم الحق الرحمن الرحيم تبارك وتعالى.

وحين كانت الدنيا أقل عنايتهم، ولما كانت الآخرة أعلى أمانهم.

ولما رجعت وجدت زوجها نائما.

قالت خيبة لك! وهذا تعبير كان عندهم شائعا، وليس مقصودا به ظاهره.

فلما رآته قد نام تركته حتى صبيحة اليوم الثاني أو ظهرتهن فراح
ويصبيه النصب والمشقة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحكى له ما حدث.
ونبينا صلى الله عليه وسلم ورغم أنه هو النبي المجتبي المرتضى إلا أنه
يوحى إليه وينتظر الوحي من قصه عمر رضي الله عنه ومن قصة قميصه
ابن سعد الأنصاري رضي الله عنهما، لينزل هذا الوحي الرباني ﴿أَجَلٌ لَكُمْ
لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ ۖ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ۗ
عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۖ
فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ
لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۚ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ
إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
فَلَا تَقْرَبُوهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فعن عبد الله بن كعب بن مالك، يحدث عن أبيه، قال: كان الناس في
رمضان إذا صام الرجل، فأمسى فنام حرم عليه الطعام، والشراب، والنساء
حتى يفطر من الغد، فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي صلى الله عليه
وسلم ذات ليلة، وقد سهر عنده فوجد امرأته قد نامت، فأرادها فقالت: إني
قد نمت، قال: ما نمت ثم وقع بها، وصنع كعب بن مالك مثل ذلك، فغدا عمر
إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله تعالى: " {عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ
كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ} [البقرة: ١٨٧] " (١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم. فأُنزل الله {علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتأب عليكم وعفا عنكم} (١).

وعنه أيضا: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائما، فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر؛ لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائما، فلما حضر الإفطار أتى امرأته، فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته، فلما رآته قالت: خيبة لك! فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم} [البقرة: ١٨٧]، ففرحوا بها فرحا شديدا، ونزلت: {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود} [البقرة: ١٨٧] (٢).

(١) صحيح البخاري: ٤٥٠٨

(٢) صحيح البخاري: ١٩١٥

المبحث الثالث: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾

هذا تصوير غاية في الجمال وغاية في الإلف والإبداع في هكذا تجسيم لصورة حنية رضية وانسجام وتواد وتراحم، يحمله كل من الزوجين تجاه أخيه زوجه.

وقد حفل قرآننا ببيان هذه الصورة أكثر من مرة، برهان اهتمام هذا القرآن بلبنة المجتمع الأولى وكيفا تتنشأ على هكذا سكن، وعلى هكذا مودة، وعلى هكذا رحمة.

ولأن هذه الأسرة وحين يكون طرفاها وهما الزوج والزوجة على هكذا شعور فيما بينهما، أن أحدهما لباس لأخيه الآخر.

ويكأنك تستطلع من هذه الصورة البلاغية الحانية الرشيدة، والتي يرفرف عليها، ومن حولها، ومن هذه الرحمة وهذه المودة وهذا العطاء وهذا البذل، كل إلى أخيه.

وحين يكون الأمر كذلك فما بالك بأسرة سوف تتنشأ من بين هكذا إلف وحنان ومحبة ومودة ورحمة؟

فإن الذرية سوف تتنشأ على هكذا إلف أيضا وعلى هكذا اجتماع وإلفه ومحبة ومودة كذلك. وهذا هو المبتغى من تنشئة هذه المجتمعات أمه واحدة متراسة مبتناة على أسس التقوى والعمل الصالح.

نستطلع ما أنف من هكذا قول ربي: هن لباس لكم وأنتم لباس لهن.

ويكأنك أيضا وحين تقف على كم كان تعبير القرآن الكريم بهذا
الضمير المنفصله (هن)؛ دلالة هذا الاهتمام والتقدير لهذا العنصر النسائي
الأنثوي في حياة البشر.

وهذا ما يعني قيمة المرأة عالية سامية سامقة رقيقة.

إن هذا اللباس الذي منه كست زوجها وألبسته، فكانت له رداء أولا،
وهكذا قيمة المرأة في ديننا. **هن لباس لكم:** غير صورة بشعة أوضعتها فيه
مذاهب شتى وطرق مختلفة وسبل متفرقة.

ولعلي أقسم بربي تعالى لو أن المرأة والرجل وقفا عند هذا القول
الرباني لأسلم من لم يسلم! ولقنت وخضع وشكر من أسلم.
ولما أعلى هذا الدين شأن المرأة ولما منحها هذا الوسام.

وإذ نحن إذا لسنا بحاجة أمام هذا النص لا إلى اليوم العالمي للمرأة ولا
إلى اليوم العالمي للطفل ولا إلى اليوم العالمي للأمة!

ولأننا كل حين نقرأ ونتلو هكذا رضا منا تجاه أخواتنا وأمهاتنا
وزوجاتنا خير عظيم وشأوا حسنا.

وانظر كيف كانت ولا زالت تورث المرأة كأنها تركة تركها المتوفى؛
وكيما يتبادلها أخوه من بعده غصبا عنها!

نحن هنا أمام قول ربنا تعالى، ونكرره (**هن لباس لكم**)، وكفانا
هذا القول العظيم السني العلي. وحين تجد هذه اللفتة من لباسك وسترك
ومن سترها هي زوجتك.

من اللباس الذي يستر من عورة ويخبئ من دنيئة ويظهر من رحمة
وكرم وعطاء وبذل.

وحين كانت لك ثيابا رداءا لباسا كساء ساترا!

وهذا أيضا وقوف بنا معاشر المسلمين على هكذا محبة لأزواجنا،
وحين كن لباسا لنا.

نضعهما بين من أعيننا احتراماً ومحبة وشفقة وحنانا ومودة ورحمة
جزاء جميل لهن علينا. وحين كن لنا لباسا.

ويكأنك تشعر هذا الشعور الرضي أيضا ومن قول ربك الرحمن (هو
الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها)، فهن
إذا سكن وهنا إذا لباس.

ولأن أحدنا قد يلبس رداء أو ثيابا أو كساء مضطرا إليه! ولكنه حين
يكون هذا اللباس كساء كيما ليطمئن وليحنوا ليجد الراحة والسكن والألفة،
فإن هذه نعمة لا تعادلها نعمة أخرى.

هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن
إليها فلما تغشاها: هكذا في أداء قرآني يأخذ الأبواب أخذا، في هكذا كنيات
الألفاظ ودلالات بعيدة.

ويكأنك تحسبها قريبة أيضا من هذا الجمال الذي أداه أمامك ولك هذا
التعبير القرآني المبهر!

فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوى الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين: ولكنه ولما يكونوا سكنا ومنه فلما تغشاها في هكذا أداء قرآني مهذب جميل جليل كريم عظيم الأداء عرفت كم كانت لبنة المجتمع الأولى وهي الأسرة قوامها هو هذا اللباس. والعلاقة بينهم مرتبطة برباط متين.

وكما أكرر إن اللباس قد يكون السكن و قد يكون هو هذا الغشيان، أو كلاهما معا، وذلكم أضفى بيانا!

هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها: إن الزوجة في أصل الخلق مخلوق مستل من زوجها!

إنه بهذا الأداء القرآني الأبهر ليزداد حنانك لها وإلفك ومودتك ومحبتك؛ ولأنها جزء منك. أو ويكأنها كانت كذلك.

فمن ذا الذي ليس يحنو على جزء كان منه؟!

وهذه فطره سوية، ومنه يكون عش الزوجية هكذا حنانا ورغدا وهناءة ومحبة ومودة وعطاء وبذلا، ودون قيد أو شرط أو حد أو قيد. إنني لأستشرف هذه المعاني كلها من قول ربنا (هن لباس لكم).

المبحث الرابع: نبينا صلى الله عليه وسلم يسكن إلى أزواجه

وحيث كان هذا الميزان البلاغي والترتيب اللغوي والأثر النبوي الذي يعمل به هذا التنسيق ولأنه من لدن حميد مجيد، وحين تقرأ هكذا ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾، في تكرار للضمير المنفصل هن، وحين يبدأ به المقطع ويختم به المقطع!

فإنه لم يأت هكذا عبثاً، وإنما لهكذا غايات ندية بلاغية مؤثرة فعالة بضميرها المنفصل. وهذه واحدة.

بلاغة الالتفات: ويزداد من تفاعلك ويزيد من حركتك ونشاطك الدائب مع هذا القرآن البليغ المعجز المبهر المدهش، هو ذلكم الالتفات في الضمائر من غائب إلى متكلم في الخطاب. ليعطي يعطي حركة دائبة تجعلك مشرفاً على الإفاده منة والحركة معه والتفاعل معه والتأثر به. وإذ كيف كنت آخذاً بأسباب أن تكون لباساً لأهلك، وأيضاً تأخذ الزوجة أن تكون لباساً لزوجها!

ومنه قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيّاً فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَتَتْهُ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. ليجعلك تحن إلى من هو جزء منك. وكما أنك تحن وترأف وتلطف وترفق وتحلم مع أبنائك وهم فلدات أكبادك فكذاكم سبقت فلدات أكبادك الزوجة، وحين كانت جزءاً منك أصالة، ومن قوله تعالى (ربكم الذي

خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما (...). فإن النفس هو آدم عليه السلام خلقت منه حواء وزوجه.

ليعيش العبد هذا المعنى التاريخي ويستصحبه معه أبداً وحين استصحابه، والحق أقول لتجدن أسراً مترابطة ملتئمة ملتحمة تعيش حنانها كله.

وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وكيف الستشرف سكنا إلى زوجه ولما كانت من هكذا الفطنة والتوفيق والإلهام الربانيين وحين أسدت نصحا ولما ارتآها النبي محمد صلى الله عليه وسلم هكذا دليل خير ومن مثل هكذا وقت الشدة!

وإذا لم يكن هذا هو السكن المتبادل فمن أين يكون سكن سواه؟!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا، فانحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما^(١).

(١) صحيح البخاري: ٢٧٣١

هذه روايات التاريخ في إثبات أن الزوجه سكن ولباس وستر لزوجها.

ثم إن قوله تعالى (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سواتكم وريشا). وهل نفيد من ذلك ونستطلع ونستشرف ونستدعي أن كلا الزوجين ستر لأخيه ومن كل شيء وفيما يحدث بينهما على فراش زوجيتهما فلا يبت أحد ما يصير ولا ينشر ما يحدث؟

وهل يمكن أن نفيد منه ستر كل من الزوجين على صاحبه وصبره على ما فيه من معائب. وكلنا ذلكم النفر غير الخالي من المعائب والنقائص؟ وإنما لم يكمل في خلقه وخلقه إلا هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولقوله: كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

المبحث الخامس: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾

المراقبة

وحين قال ربنا الرحمن عز وجل في مقطع من مقاطعها النيرة الكريمة ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾، وأنت إذ تتلمح في هذا السياق ولأول وهلة تراها وتشعر بها وتلمسها هي هذه الفجأة إلى قلبك وحين يعلمك ربك أنه أعلم بك.

وهذا هو العلاج بهذه الصدمة إن جاز التعبير ولأن فيه إفاقة لقلوب العبيد، وتذكير لأولي النهى، وأولي النفوس الزكية. وحين كان ربهم أعلم بهم. إن هذه الفجأة بهذا الإعلام تجعل العبد في رجفة وفي وجل وفي خوف يبعث كل ذلك على المراقبة وليتأكد في يقين القلب المسلم المؤمن الخاضع القانت الخاشع الساكن إلى ربه ومولاه أن الله تعالى يراه.

وحين كان ذلك استشرافا واستدعاء لملكة الإحسان التي يريد ربنا أن يربي عليها عباده المؤمنين. وحين يفعلون أو يذرون أو يأتَمرون أو ينزجرون وهم مستصحبون معهم هذا الإحسان الذي هو المراقبة. ويكأنك وحين تعبد الله فاعبده وكأنه يراك فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وهذا الحث عظيم وأيما يكون الإيمان من لدن أولاء العبيد إلى ربهم العظيم الحميد.

وحين تتأكد مثل هذه العلاقة الإيمانية بين عبد وبين معبود هو ربك الرحمن العظيم الرقيب فأبشرن بخير.

وحين يستخلص ويثمر وينتج هكذا عبدا على الصراط قائما وعلى المنهج عاملا وعلى السبيل ثابتا إن كل هذه المعاني نستشرفها ونستدعيها بهذه الفجأة التي أوقفنا عليها هو هكذا حرف فاء العاقبة!

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾: فلنسم هذا المقطع، مقطع المراقبة، مقطع الشهادة، الله شهيد، وأنت تراقب، وحين يعيش عبد هذا المعنى، فمن المؤكد أنه سوف ينتج ثمارا حلوة غضة طرية تشتهيها النفوس، وتتذوقها القلوب.

بلاغة ذكر الفاعل: وذكر الفاعل ها هنا صراحة يزيد في معنى هذه المراقبة ويؤكدها ويوطد أركانها وجذورها في أعماق وجذر قلوب المسلمين.

فاستحضر الفاعل وهو الله تعالى وإنه يعلمك، وحين حركتك وسكنتك.

إن هذا أيضا يضيف إلى معنى المراقبة معنى آخر جليا، يساعد العبد أن يستنهض قواه في أعماله. إن هذه المراقبة وتلك الخشية لرب العزة والجلال تبارك وتعالى.

وكيما يتضح هذا المعنى أكثر احذف الفاعل، لتجد المعنى قد اختل، ولم يؤد معنى هذه المراقبة منك ما أداه حين ذكر الفاعل.

ويأتي الفعل والفاعل، ويأتي الفعل ماضيا؛ تأكيدا آخر لمعنى علم ربك؛ كيما يغرس فيك معالم هذه المراقبة. وذلك غير أن يأتي الفعل مضارعا.

فتجمعت لدينا ثلاثة ظروف تؤكد معنى المراقبة:

١- مجيء الفعل ماضيا.

٢- ذكر الفاعل والعلم به. وهو الله تبارك وتعالى في علاه.

٣- ومجيء الكلام على أنه جملة فعلية.

٤- غير أن لفظ الجلالة (الله)، وما تضمنه من سلطان الله وعظمته وقهره وغلبته، مؤكد آخر أيضا، على سلوك سبيل معنى السلطان والقهر والغلبة والحكم والقوة والكبرياء والهيمنة والجبروت، الذي يؤديه لفظ (الله)، فيعمل عملا آخر في القلوب، منضافا إلى هذه الفجأة.

فتكونت لديك أرصده أربعة في أعمال هذه المراقبة أيها العبد الصالح.

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ﴾، بلاغة المصدر المؤول: ويجيء المفعول به لهذه الجملة الفعلية جملة مصدرا مؤولا؛ لتجمع بين كنفاتها وجنبااتها علم الاستقرار والثبات أيضا.

الاستقرار والدوام من كونها جملة اسمية، وأضاف إلى هذا تصدرها بالحرف الناسخ. ﴿أَنَّكُمْ﴾، الذي يفيد أيضا تأكيد هذا العلم.

وربنا الرحمن عز وجل لا مقهر له ولا ملزم له تعالى أن يؤكد. فإن ربنا الرحمن وإذا قال وإنما يكون قوله، هو القول الفصل.

غير أن هذه الحرف الناسخ (إن)، ويكأنه يؤكد هذه الفجأة، وهذه البغته، وهذا العلم؛ لزيادة معاني المراقبة لدى العبد، وزيادة تأكيد معنى القيومية والقهر والهيمنة لهذا الرب العظيم. فإن كل شيء ليس يخرج عن نطاق علمه شيئاً.

المبحث السادس: بين المراقبة والإحسان

قلنا إن هذه الآية قرينة المراقبة ودالة الإحسان، وحين يعبد العبد ربه،
ويكأنه يراه تعالى، وإن لم يكن يراه العبد فإن العبد يرا ربه تبارك وتعالى.
واستحضار هذه المراقبة قمن أن يضبط سلوك العبد منا، وأن يفعل
تقواه لربه ومولاه سبحانه وتعالى في علاه.

وقلنا إن الفعل علم والفعل كان والفعل تختانون هذا تركيب معجز
مبهر مدهش ملفت!

وذلك لأنه يحمل أحدا أن يتدبر وكيف كان من مكنة أحدا أن يأتي
بهكذا تركيب فيه هذه الأفعال الثلاثة. في هكذا مسافة بلغت من القصر
مبلغها، وبهذا الحيك القرآني الرباني العظيم. إن هذا شأن نقف عليه بهكذا
انبهار لهكذا ترتيب وتنسيق لهذه المفردات اللغوية وحين كانت بهذا الحيك
وهذا النضال وهذا الترتيب الإلهي الذي يجعلك وحيناً تقرأ أو تتلو فلا
تشبعن من ترتيل ومن تكرار لهكذا نظم فريد ملفت جداً!

وأیما بليغ أو أديب أو قريب أو كاتب أو شاعر أو ناثر أو خطيب أو ما
سوى ذلك ليس من مكنته أن يتأتى لنا بهكذا ترتيب مزاج بين هذه الأفعال
المختلفة بنية وتركيباً ومعنى وأزمنه وحدثاً وخطاباً!

و لست أشك أن هذه الغزارة وهذه الكثرة من توارد المعاني من وإلا
أنها من إعجاز كتاب الله تعالى.

المبحث السابع: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾

بلاغة اختيار الفعل كان: لكن الفعل كان بالذات له خصيصة.

ونقول: إن أي فعل مبدئياً له دلالتا: الحدث والزمن وما عداهما معنى مختلجا خارجا عن الحدث وعن الزمن.

لكن الفعل كان قد تميز، ومن تميزه جاء اختياره نظم الآية!

إن الفعل كان ولأننا بصده الآن يدل على ثلاث:

- ١- حدث وهو الكينونة.
- ٢- وزمن وهو أنه جاء دلالة على الماضي.
- ٣- وفوق هذين المعنيين يدل هذا الفعل كان على تأكيد ما أخبر عنه.

فاجتمعت مؤكدات من مجيء الفعلين علم وكان ماضيين، واختص الفعل كان بمزيد تأكيد.

ومنه فصار التوكيد مركبا. ومنضافا إلى الفعل الناسخ المفيد للتوكيد أيضا فزاد التوكيد توكيدا ثالثا!

ومنضافا إلى كل ذلك هذه المنظومة من الدوران على الجملة الإسمية المفيدة ثباتا واستقرارا، ومن مجيء خبرها جملة فعلية، أدى مؤدى الاستمرار.

وانكشف لديك من كل ما سبق كم كان قرآن ربك بليغا!

ولأن المخبر هو الله عز وجل ولما يأت بهذه المؤكدات كلها وأجمعها على هكذا غزارة ووفرة، في هكذا مسافة قصيرة تأكيداً لنا مرة أخرى ومرات على عظم شأن المراقبة لله تبارك وتعالى.

وكيما يتأكد لدى العقل والقلب المسلمين أن الله تبارك وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

إنه الله تبارك وتعالى أيضاً ليس يريد منك أيها العبد الحصيف الذكي أن تقع ولو من بعيد فيما وقع فيه غيرك، وحين خاطبهم ربهم تبارك وتعالى استهزاء واستهجاناً واستنكاراً ومن قوله تبارك وتعالى ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

إن الله عز وجل حين جعل هذا الظن ومن غير محله، ولفتا لانظار المؤمنين أن يحذروا من أمرهم وان يكونوا على الجادة من أمرهم أيضاً. ومن قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ١٢ - ٢٣]. ومنه كان الخسار لقوم كان من ظنهم هذا زف

إن الله عز وجل يحذر الفئة المؤمنة وألا تقع في ورطة كهذه؛ ولذا اختارت أن تعيش حياتها وليلها ونهارها كله مراقبة لربها الرحمن عز وجل.

فتستحضر عظمتة تعالى وليست تجعله أهون الناظرين!

بلاغة الفعل تختانون: إن هذا الفعل، وحين جاء هكذان ولما كان أصله من الفعل الثلاثي خون. فزيادة هذا المبنى بهذا الشكل أيضا تنبيه لهذه الفئة المؤمنة التي رضيت بربها ربا وبإسلامها دينا وبنبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا و رسولا: لا تختانوا، أي تعلم مدى مراقبتها لربها عز وجل.

فليست تقع في هذا الأمر فتخون نفسها؛ ولأن الله مطلع عليها، وهذه واحدة.

والواحدة الأخرى: فإنه ليس أحد يختان، وحين يختان وإلا أنه يقدم خيانتة لنفسه قبل وبعد كل شيء آخر!

وهذه النفس التي بين جنبيه وحين يعمل على خيانتها، فإن هذا تعبير نفسي، منه تكون الحياة معه مرا علقما صبرا!

إن الله تبارك وتعالى ينادينا معاشر العبيد ألا نقرب مستنقع هذه الخيانة؛ ولأن العبد وحين يعصي ربه، وإنما يخون، وغنه وحين يقدم على هكذا فعل وإنما يخون وقبل أي شيء آخر هي نفسه التي بين جنبيه!

إن هذا أسلوب نفسي يجعل حياته عليه نكدا.

وهذا أمر مشاهد، وحين يقع أحد فريسة لتلبيس إبليس وتسويله فما ظلم مولاه سبحانه، وإنما يجد أثر ذلك من نفسه حزنا وغما وألما ووحشة.

وقفة عظيمة: لا يفكرن أحد من العبيد وحين كان عبدا لمولاه أن يقع في هذه الدائرة. وهذه الورطو وهذا المستنقع! ولأنه سوف يخون أول ما يخون نفسه.

وعلاوة على أنه ربه مطلع عليه فحاز بين لئيمتين:

١ - لئيمة خيانتة لنفسه.

٢ - ولئيمة زعم شيطانه أن ربه ليس مطلعاً عليه.

غير أنك تلاحظ ثلاثة أمور:

الأمر الأول: هو هكذا مجيء فاء التعقيب، فهذه رحمة بك وحين أغاثك بتوبته، ولم يدعك تعيش هذا الألم والوحشة النفسية جراء فعلك هذا.

وحين قد كان منك هذا التعدي ولأن ربك يعلم منك مراقبة أصلية. وإنما كان هذا السهو أو هذا النسيان أو هذه الغفلة أو هذا الخطأ منك شاردة ليست مبدأ وليست نظاما وليست طريقا وليست منهجا. ومنه فأراد ربك أن يجبر بخاطرك إسعافا لك فتأب عليك.

الأمر الثاني: هو هذه التوبة من الله عز وجل. أي كأنك لم تكن قد فعلت شيئا! وحين قد سترك ربك ومولاك عز وجل وستر عليك ذنبك فلم يفضحك!

الأمر الثالث: هو قوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾.

وحين جاء التعبير المتضام بهكذا فعلي التوبة والعفو، وهذان لفظان متقاربان، ويكأن مجيئهما وبهذا القرب؛ برهان هذا الحنو الرباني وهذا العفو الإلهي على أن العبيد وحين قد تاب ربهم عليهم وعفا عنهم.

الفرق بين التوبة والعفو: والخلاف دائر بين أهل العلم حول الفرق بين التوبة والعفو، وهل هنالك من فرق بينهما أم لا؟ ونقول وبالله التوفيق: إن اللفظين متقاربان معنى، وإن اختلفا لفظاً وصورة ومبنى.

ولربما كانت التوبة ستراً ومحو لأثر الذنب دون عقاب.

ومنه أيضاً العفو، وهو ذلك محو الذنب وأثره وعقابه.

غير أن هنالك لطيفة أخرى: وحين كانت التوبة خاصة بربنا الرحمن. م

ومنه كان العفو يمكن أن يقع من العبيد، غير أنه ليس من عفو ربنا تعالى لا من قريب ولا من بعيد.

فإن عفو ربنا تعالى وهو ذلكم النداء الرباني الحاني، وحين قد ألهمه رسولنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحين قالت له أمنا عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أ رأيت إن وافقت ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو^(١).

(١) سبق تخريجه.

المبحث الثامن: الإطناب وأثره في بلاغة القرآن الكريم

وحين قال ربنا الرحمن عز وجل ومن أجزائها ومن مقاطعها ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾.

ويكأنك تستشعر هذا اللطف الرباني وهذا المجد لهذا الرب العظيم المتعال سبحانه وتعالى في علاه، وحين يبسط توبته على عبيده وعفوه عنهم، وحين لم يطلبوا!

وهذا هو اللطف وهذه هي الرحمة لهذا الرب العظيم الرحيم الرحمن.

ويكأن ربنا عز وجل فتح أبواب توبته وعفوه لعبيده وعن عبيده، ولما لم يشرعوا طلبا لهذا، ولا سيما في هذا الموضع من كتابه العظيم أيضا.

وحين قد علم ربهم أنهم يختانون أنفسهم ولما وجدوا مشقة على أنفسهم وعنتا ألا يقربوا أزواجهم أو الا يأكلوا ومن بعد نومهم.

وهذا استشراف نؤكد عليه ونكرره ونعيده ولأنه من مقومات هذه الرحمة الربانية الحانية من ربنا عز وجل.

وكان السياق وكما أقول لم يحك لنا أن العبيد قد تابوا أو أنابوا أو طلبوا عفوا ربهم.

وان كان المسلم ومن عقده أوبته إلى ربه وطلب عفوه عنه أبدا أيضا.

غير أن السياق ها هنا لم يحك شيئا من ذلك.

ومع تقديرنا للفيف من أهل العلم الكرام البررة أنهم قالوا قولاً
مقتضاه أن العبيد قد سألوا ربهم التوبة ومنه فجاء هذا النص ﴿فَتَابَ
عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾.

وإلا أن السياق لم يفهم منه ذلك، ولئن كنت أكرر أن المفترض في العبد
المسلم أنه أبداً تواباً إلى ربه التواب؛ طالبا عفو ربه عنه أيضاً أبداً.

المبحث التاسع: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

وبعد أن أحل ربنا الرحمن عز وجل بدء الآية ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾. وقد كان هذا يمكن أن يكون كافيا، وإلا أن الله تبارك وتعالى قد أتى بهذا الحكم وعلى سبيل الأمر.

وحين كان هناك على سبيل الخبر.

وكيما يستجمع العبد المسلم هكذا لطف ربه وعفوه سبحانه وتعالى ويسر دينه ورفع الحرج عنه. مرة خبرا، ومرة أمرا.

﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾: والمباشرة هي الجماع أي الغشيان أي الوطء، و'نما سميت مباشرة وهي كما نرى على وزن مفاعلة أي أن كلا من الزوجين يباشر زوجه.

وهذا أيضا مقتضى من مقتضيات قول ربنا عز وجل (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن). في هكذا أداء رقيق ناعم رقيق.

وهذا الحنان الأسري وبهكذا لطف النبي أيضا، ومن مثل هذه التعبيرات الأدبية الأريية القرآنية. غير أنك تتلمس أيضا هذه فاء العاقبة، وحين كررت مرتين ﴿فَتَأَبَّ عَلَيْهِمْ وَعَفَا عَنْهُمْ﴾ ٣٦ ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾. في هكذا قرب أيضا برهان هذا الرفع الفوري العاجل لما قد وجد المسلمون منه مشقة عليهم. وإذ يجدون ربهم بهم رؤؤفا رحيمًا.

ويكأنك تستشعر أيضا من الفعل باشروهن. وهذا معنى من معاني وأهداف عقد النكاح.

وحين كان من مقتضاه حل كل من الزوجين استمتاع كل بأخيه. وهذه أيضا من لفتات هذا القرآن العظيم وحين جعل المخاطب بهذا هو صنف الزوج، ولأن المبادرة تكون منه ابتداء.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

وابتغاء ما كتب ربنا عز وجل لنا في هكذا الحنو أيضا، ولما لم يأت لفظ ما كتب الله عليكم!

ويكأنها مقدمة لما قد أحل ربنا على بساط من ورد وهناء وسعد ويسر وحنو من السماء إلى أولئك العبيد المحاويج إلى رحمة ربهم ورضاه.

ويكأن الله تبارك وتعالى وحين يأمر من بعد المباشرة بابتغاء ما كتب الله تبارك وتعالى لنا، ويكأنك تشتم وتشتم عقب تكرار.

ويكأنه أفاد هذا العطاء والمن الربانيين وحين اختلف لفظه وبنائوه وبقي لك معناه وروحه وأداؤه.

﴿مَا كَتَبَ﴾: أي كل ما كتب الله تعالى لكم، ومما أحل لكم.

فإنكم ومن ليل الصيام كنتم قد أحل لكم هذا، وعلى رضا من ربكم، وحين أحل عطفًا ويسرًا وتسهيلًا لكم.

غير أن وقفة حانية ها هنا: وحين قال الله تعالى ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۚ عَلِمَ

اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۖ فَالآنَ
بَاشِرُوهُمْ وَأَنْبَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۚ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى
اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا
تَقْرَبُوهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٢٤﴾

فهذه الديباجة التي جاءت المقصود من الآية هو حل كل من الزوجين
للاخر وحل الطعام.

إن هذه الديباجة وهذا الإطناب بكهذا المد القرآني وهذا التأويل
الرباني، وهذا العطف القرآني، وحين يتنزل بهذا التفصيل ويكأنه يسوق
إليك ما مد به عليك وكرر على بساط من رضا مفروش وردا؛ ورضا لك أيها
العبد.

ومنه فلزم أن يأتي اللفظ هكذا، ومن بعد لفظ آخر مملوءا بهكذا
وعطف ولين.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ
مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾

قد أحل الله لكم كل ذلك إلى أن يبرز فجر، وهو إمكان أن يميز العبد
الخيطة الأبيض أي بصيص النهار من الخيط الأسود أي نهاية الليل.

﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾: أي الغائبة فلكم حل مباشرة ولكم حل أكل ولكم حل شرب طيلة ليلة الصيام، وحتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾: ويكأن هذا الخيط الأبيض والخيط الأسود لا يبدوان إلا عند حلول وطلوع الفجر. وهذا هو التوقيت الرباني للإنسان ليلة الصيام.

وكلوا كلكم واشربوا كلكم أيها المخاطبون بالصوم.

إن هذا التبين برهان أن العبد يسعى سعياً حثيثاً لاستكناه بروز وبيان الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

وحرص المؤمن المسلم على تحري موافقت العباداة في أوقاتها

وكما أن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، فكذا الصوم من طلوع الفجر وإلى غروب شمس ذلك اليوم.

المبحث العاشر: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

إن هذا الابتغاء نشتم منه عبق التطلب.

ويكأن ربك الرحمن أراد أن يضع أناملك على أسباب وأسس فلاحك.

وحين تتطلب أي تبحث عن درر ما قد بسطه لك ربك.

أي كتبه ما كتب الله لكم، أي استدعوا وابحثوا وتطلبوا وابتغوا واغتنموا كل ما كتبه ربكم لكم. وأنت تستشعر حلاوة الأداء وبيانه وعبقه وشذاه. وحين كان هذا الدفء والحنان والعطف واللين والرفق والحلم من لدن عطاء ربك.

ولما كان منه تعالى ذلك؛ فأغناك عن بحث يمينة أويسرة.

ويكأنك قد تضل الطريق فلا تصل؛ ومنه فقد أغناك مولاك وأولاك. وما بقي عليك إلا أن تبتغي وأن تقف عند ما كتب الله لك.

وإنك أيضا تستشعر هذا الدفء من هكذا الأداء أيضا.

وحين يربط النظم القرآني على فؤادك، وهو إذ يهديك ويسديك.

فإن الله تبارك وتعالى ومن نعمائه وفضله أغناك، وحين كتب لك أي فرض لك وبين لك وأغناك عن أن تروح هنا مرة فتضل، أو هنالك مرة فتغوي.

ولأنك متعبد بمراد ربك لا بمرادك أنت ولا مراد غيرك.

﴿لَكُمْ﴾: هذه اللام وما فيها من اختصاص لك أوقفك على كم هو اهتمام ربك بك.

وأنت إذ تربط برباط علمك وجأشك وبحثك وابتغائك الذي أمرك به مولاك وحين أحل لكم ليلة الصيام؛ ولتقف على كم كان ربك بك حليما. وحين أولاك وحين أغناك ببيان ما فيه هداك وسناك، وإن ربك قد خصك وحين بين لك؛ إنعاما منه وفضلا.

ومن ذا الذي ليس يقبل فضل ربه ومولاه. وكأننا نفتح الصدور والقلوب والعقول ولنغترف ولنبتغي ما كتب الله لنا.

وقف أئمة التفسير والتأويل لكلام ربنا عند قوله تعالى ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ﴾، ووقفوا عند ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

وحين ارتباطها بقوله تعالى ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾، ويكأن هذا علاج الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تبارك وتعالى عنه، وحين كان منه ما كان.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: وبطبيعة الحال ينطبق النص على كل من نهج نهج عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه؛ ولأن النظم قد جاء علم الله مخاطبا عموم الأمة.

فجاء الخطاب بالجمع أولا سترًا لفاروق عمر، ثم سترًا لغيره.

ثم نضيف أننا نشتم من ضمير الخطاب أن غيره كان قد وقع في هذا،
وحين قد أتى أهله في بعد نومه أو بعد عشائه.

وكما قلت وجاء قوله تبارك وتعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنْ﴾؛ بيانا وعلاجا لذلك الصحابي
الأشم الذي راح يحتطب ويجمع ويتعب ويكد، ثم لما جاء وسأل أهله وهل
عندكم من طعام ليفطر. وإذ تقول له لا بل سأبحث لك، ولما راحت تبحث
وحين رجعت وجدته نائما فأنزل الله شأنه وشأن غيره أيضا ولدليل
الخطاب، وكلوا واشربوا، أنت ومن سار سيرك حتى يتبين لكم الخيط
الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

ومرة أخرى، فإن حرف الغاية (حتى)، فيها هذا الانفساح من المجال
الذي أوحاه إليك رب العالمين في هذا القرآن المجيد.

ويكأنك أمام بحبوحة واسعة ممدودة من غروب الشمس إلى طلوع
الفجر الصادق تأكل على وتشرب وتبأشر على هنائك وسعدك ويسرك ومناك؛
فضلا ممن أولاك هذا وأسداك.

﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ : وهذا التبين قد تكفل ربك به ولم يكلفك به؛ ولأن الله
تعالى هو الذي وقت مواقيت عباداته كلها.

فقط عليك أن تتبين ظهور الخيط الأبيض من الأسود من الفجر.

ويكأن هذا التبين هو الذي منه يكون طلوع الفجر الصادق، الذي
يمنع فيه طعام أو شراب أو مباشرة.

وكيما يبدأ يوم جديد لصومك.

وكما نقول دائما فإن أحكام شرعنا دائما تأتي على الإجمال والجماعة والعموم، وليس يخص بها أحد بذاته؛ ولأن أحكام الشرع عامة لكل من خوطب بها.

هل تؤخذ شهادة الواحد العدل برؤية الهلال؟ غير أنهم بحثوا هذه المسألة، فإذا رأى أحدهم الهلال بنفسه ثم لاعتبار أو لآخر لم تؤخذ شهادته. فهل يلزمه أن يصوم؟

وهذه مسألة بحثت في باب قوله تعالى • فمن شهد منكم الشهر فليصمه).

أما هنا و (حتى يتبين لكم)، ونضيف إليها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

هل يجوز اعتماد المواقيت الفلكية في الرؤية والغروب وطلوع الفجر؟ ويكأننا يمكن أن نستشهد بتحديد المواقيت الفلكية على يوم الأرصاد الجوية والفلك وما سوى ذلك، فيمكن أن يعتمد عليه.

وإلا أنه يبقى لسكان البادية والهجر الذين ربما لم يصل إليهم هذا العلم أن يقفوا عند قوله تعالى (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر).

المبحث الحادي عشر: المقصود بالخيط الأبيض والخيط الأسود

وأنت قد رأيت ولمست ووقفت عند هذا الأحكام الربانية العظيمة،
وحين حد حدودا لهذا الصوم، ووقت له مواقيت.

وهو ذلك الأمر الذي يكون من طلوع الفجر الصادق وإلى غروب
شمس ذلك اليوم. ويكأنك قد وقفت أيضا على حكمة جليلة، وحيث كان
التشريع مختصا بهذا الرب العظيم فليس لنا إذاً أن نتساءل بل نقف على
الحكمة الربانية التي قد تغيب عنا.

ولما لم يكن الصيام من من قبيل شروق الشمس إلى غروبها، وإنما
ولأننا نقول ومرجعنا في الأساس هو التشريع الرباني المحكم. فنقف عند
هذه الحكمة، (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من
الفجر). وهذه واحدة.

وواحدة أخرى منضافة إليها وهو ذلك الضبط الرباني والإعجاز
الإلهي، وحين جاء عن عدي بن حاتم رضي الله تبارك وتعالى عنه أن المقصود
من ذلك الخيط الأبيض هو بذوغ النهار وأن المقصود بالخيط الأسود هو
الليل، وحين يظهر هذا الخيط.

وأيضا وحين قد جاء الصحابي الجليل سهل بن عمرو في، وحين قال:
يا رسول الله أحضرت خيطين أحدهما أبيض والآخر أسود ولما ميزت بينهما
بالرؤية والنظر عرفت أنه الفجر وحين قال قد وضعتهما تحت وسادتي!

وحين يطرف ويفكه ويبسم نبينا صلى الله عليه وسلم حيال تصرف
وحين قال له: إن وسادك لعريض يا سهل بن عمرو!

إذ وكيف يمكن لوساد كهذا وأن تضع تحته خيطين أحدهما أسود
والآخر أبيض.

وإلا أن هذا وحين كان خارجا عن تأويل النص، وحين قد بين له النبي
صلى الله عليه وسلم، ومما أنف، وكما قد بين لعلي رضي الله تبارك وتعالى
عنهما.

ونضيف أمام هذا التوقيف الرباني لمسائل التعبد لربنا الرحمن تبارك
وتعالى وحين كان من إلف هذه العبادة أن يكون أحدنا وقافا عند شرع ربه،
فليس يقول بعد أمره تعالى شيئا، وإلا أن يأتmer بأمره تبارك وتعالى، وإلا أن
ينتهي عما نهى عنه ربه الرحمن عز وجل. و

هذا هو المقصود من قول الناس لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فإن
هذه الشهادة هي فعل المأمور وترك المحذور. ويقول نبينا صلى الله عليه
وسلم أيضا.

﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾: من طلوع الفجر إلى الليل أي إلى
غروب شمس ذلك اليوم.

وهذا هو المقصود من قوله تعالى ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾: أي إلى غروب شمس ذلك اليوم؛ ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أقبل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم^(١).

وكان منه تحقق الغروب دلالة على الإفطار.

وإن جاز أن يحل محله ما تقول به هيئات الأرصاد والفلك في أقطار الأمه وعلى اختلاف ربوعها واتساعها.

إلا أنه يبقى القول أن الغروب هو المعتمد عليه، ولا سيما في المناطق التي ليس يمكن أن يكون فيها وسائل اتصال.

(١) صحيح البخاري: ١٩٥٤

المبحث الثاني عشر: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾

استثناء من أصل

هذا هذا مطلق العبودية لربنا تعالى، وحين قد أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم.

وحين قد قال ههنا ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

وكيما لا يفهم أن الأمر منسحب حتى على المعتكفين بالمساجد، فجاء هذا التخصيص وإن شئت فقل وجرى وتنزل هذا الاستثناء وإن شئت فقل.

وهذا الذي يتمتع به هذا التنزيل المبارك وحين قد علمنا وفهمنا وعقلنا أننا مسيرون حيث قد أمرنا ربنا (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير).

وفيه أيضا هو هذا الاجتماع الرباني لأحكامه تعالى أولا ولعبيده تاليا. وحين قد خصهم بهذه الحنيفية وحين اعتكافهم فيضبطون سلوكهم نحو ربهم لا غير. ومنه فلا يعلقون هذه الأفئدة وتلك النفوس إلا بالله عز وجل.

جريا وراء قول أمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، وحين قالت: إذا دخل العشر أي الأواخر من رمضان شد النبي صلى الله عليه وسلم مؤزره وأحيا ليله وأيقظ أهله.

فإن هذا الاعتكاف: جاء استثناء وتخصيصاً لقاعدة حل المباشرة ليلة الصيام.

سؤال: هل يمكن تخيل أن تكون هذه الواقعة داخل المسجد؛ ولأن السياق ربما يشتم منه ذلك، أو لربما حام حوله، وقال كيف ينهى عن ذلك والعقل الصريح يقتضي أنه ومن مقتضى الأدب ألا يباشر عبد زوجه في المسجد؟

وجوابه سهل ميسور ، ولما كانت الحاجة قد تضطر المعتكف أن يخرج من المسجد ليقضي حاجته أو أن يتوضأ أو أن يغتسل من احتلام مثلاً أو ضرورة.

ولأن ديننا سهل ميسور؛ ومنه جاء هذا النص بهذا الحظر؛ حتى ولو خرجتم أيها المعتكفون من المسجد لحاجة وضرورة بشرية ملجئة فليس لكم أن تباشروا أزواجكم، وإنما على قدر الحاجة التي من أجلها خرجتم، ثم تعودون متبتلين إلى ربكم الحق المبين؛ جرياً وراء هذه النية السديد في الاعتكاف.

ولما كان مقصوداً من هذا الاعتكاف هو ذلكم التبتل والترتيل والذكر والصلاة والدعاء، ومن ثم جعل ربنا الرحمن تبارك وتعالى مباشرة. ومنه جاء هذا النص الميمون (وأنتم عاكفون في المساجد).

بلاغة الحال: ولما كان إعراب هذه الجملة (وأنتم عاكفون في المساجد). حالاً أي والحال أنكم نويتم الاعتكاف، وأنتم معتكفون، والحال

كذلك، فليس يحل لكم من مباشرة نسائكم من شيء. ونكرر جريا وراء إخلاص التعبد ولانخلاع من ملذات الدنيا، حال هذا الوقت، المعتكف فيه.

بلاغة اسم الفاعل: وأنت قد رأيت كلمة عاكفون جاءت اسم فاعل، وعلى مدار القرآن العظيم كله، ربما لم ترد هذه الكلمة غير مرات معدودة ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

ولما جاء بهكذا اسم الفاعل فدل على استمرارية عاكف في أداء ذكره وإخلاصه ودوامه في ذلك، طيلة مدة اعتكافه.

غير ما قد يطرأ عليه من ضرورات الفطرة من نوم أو نعاس أو راحة.

المبحث الثالث عشر: مشروعية الاعتكاف

ودلت هذه الآية على مشروعيه الاعتكاف وجوازه.

غير أنها جاءت عامة وتيسيرا وتمشيا مع أحكام رب العزة والجلال كلها.

وحين قد جعل سلطان الاعتكاف بيدك أنت أيها المعتكف لتقرر كم تريد أن تعتكف ولو ساعة. **الاعتكاف في المسجد**: وبه دل على أن الاعتكاف ليس يكون إلا في المسجد. وبرهان حجة هذا القول الرباني الكريم العظيم الشأن.

وبمفهوم المخالفة نقول أنه ليس يجوز الاعتكاف خارج المسجد وبنيه الاعتكاف؛ ولأن هذا النص الذي جاء من عند ربنا الرحمن عز وجل وحيث لم يلزمك بالاعتكاف، وإنما جعل لك السلطان على نفسك تعتكف أو لا تعتكف. ولكنك حين رأيت ونويت واتخذت قرار الاعتكاف فاتخذته موافقا لتنزيل ربك الرحمن، وألا يكون إلا في المسجد.

رسالة المسجد

وهذه رسالة المسجد في ديننا.

وحين قد بلغ بهذا النص الكريم أن جعل المسجد بيئة صالحة للاعتكاف فيه.

ولأن المسجد في ديننا له هذه الهالة العظمى من التقدير والسكون إليه والارتكار فيه.

وحين تصفى النفوس والقلوب عن شواغل الدنيا، وإذ تراها منطرحة بين يدي ربها. ملتزمة من لدنه جوده وكرمه ورزقه وتوبته ومغفرته ورضوانه.

والمسجد هو البيئة الصالحة عن غيره لأداء هذه الممكنات من الطاعات.

المبحث الرابع عشر: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

هذا بيان الاهتمام بآيات الله، وهذا التعظيم لآياته وحدوده تعالى.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: ويكأنك تتلمس من كلمة حد أي التزم هذا الحد ولا تتعداه ولا تقربه. ولأنه ومنه جاءت حدود الأراضي وحدود الأملاك وحدود المباني وغير ذلك.

برهان أنه يلتزم كل في حده ولا يقربن حد غيره ولا يتعدين على حد غيره.

وهذا هو مطلق العدل: وحين يسنه ربنا ويأمر به.

وإن لطائف عظمة الشأن هاهنا:

١- ولما كان منه تقدمه باسم الإشارة تلك؛ دلالة أن هذه الحدود بينة أمامك وليست تخفى. وهذا أمر عظيم يوجب الحمد لربنا الرحمن أبدا.

٢- وحين قد بين لنا الحدود وأوضحها وأظهرها وبحيث لم يكن هناك حد إلا وقد نفى ربنا عنه كل جهالة ممكنة، وبلغ حدا من الظهور ما أمكن أن يقال إنه معلوم بكل حدوده ورسمه.

٣- وهذا يقودنا إلى المدخل التالي: وهو بيان هذه العظمة الربانية، وحين نستطلع معا قول ربنا الرحمن عز وجل (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، فإن كل شيء مظهر بين يديك.

٤- وبقي عليك أيها العبد أن تحسن عبوديتك لمولاك، وحين لا تقرب حداً لله تعالى أو لعبيد أو حتى نفسك التي بين جنبيك؛ ولأن الحدود كلها لله تعالى.

وحيث قد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن: الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: كراع يرمى حول الحمى، يوشك أن يواقعها، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب^(١).

ولأن في ضياع الحدود شيوع الفوضى وعدم الاستقرار وذهاب الأمن وحلول الخوف والرجس والفوضى.

وهذا يقودنا إلى الملاحظ التالي وهو ألا حد معتبرا إلا حد رب العزة والجلال وحسب.

ولأن ربنا قد أضاف الحدود إلى نفسه الكريمة بقوله تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

ويكأنه ليس يملك أحد أن يحد؛ ولقصره عن ذلك.

إن السلطة المطلقة التي بإمكانها أن تحد حدوداً وأن تفرض قيوداً هي سلطة الله عز وجل وحده. ولأنه تعالى واسع عليم، ولأنه تعالى قد وصف

(١) صحيح البخاري: ٥٢

نفسه بقوله (ألا إنه بكل شيء محيط).

وانا لنسأل سؤالا للأغيار الذين دسوا أنوفهم في تحديد حدود وفرض أوامر ونهي نواه ليست من حدود ربهم من شيء!

وهل هم بمالكي شيئا من الإحاطة التي تجعل أوامرهم ونواهيهم في معزل عن خبط عشواء؛ دليل أنهم يقررون اليوم ثم يرجعون عن قرارهم آخر اليوم؛ فدل هذا القصر على وجوب أن يرجع الناس إلى مطلق العبودية لله تبارك وتعالى في علاه.

وأن يعرف كل قدر نفسه وأنه متبع لا مبتدع، ولكنه وحين يحشر نفسه، ويدس أنفه فيما لا طاقة له به، وفوق أنه يضر نفسه وغيره، ومما أنف بشيوع الظلم.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾: وهذا النهي الذي جاء أيضا مؤكدا لتحقيق هذه العبودية لربنا الرحمن تبارك وتعالى.

ويكأننا نشتم منها التهديد والزجر والوعيد.

ويكأن الله تبارك وتعالى وفيما حكى في موقف آخر (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)، وكذا قوله تعالى (فأولئك هم الظالمون).

إن مصير الظلم والظالمين معروف. ولما قد أضمر في الآيتين السالفتي الذكر؛ برهان استحضر عظيم العقاب لمن ظلم، وجزيل جزاء لمن عدل.

ولأن الظلم هو تعدي حدود الله تبارك وتعالى.

ولأن العدل هو التزام أمره بفعله والتزام نهيه بالانتهاه عنه.

مصادر البحث

- ١- صحيح البخاري.
- ٢- صحيح مسلم.
- ٣- صحيح الترغيب، الألباني.
- ٤- صحيح أبي داود، الألباني.
- ٥- صحيح ابن خزيمة.
- ٦- صحيح الترمذي الألباني.
- ٧- صحيح الجامع، الألباني.
- ٨- صحيح ابن ماجه، الألباني.
- ٩- السلسلة الصحيحة الألباني.
- ١٠- سنن الترمذي.
- ١١- تفسير القرطبي، القرطبي.
- ١٢- صحيح الأدب المفرد، الألباني.
- ١٣- تخريج كتاب السنة، الألباني.
- ١٤- أعلام الموقعين، ابن القيم.
- ١٥- مسند أحمد.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بطاقة الكتاب	
كلمة المشرف العام لمؤسسة السادة للفكر والثقافة	أ
التعريف بالمؤسسة	ب
مقدمة البحث	1
الفصل الأول تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]	4
المبحث الأول: حكمة الصيام	4
المبحث الثاني: إختصاص الله تعالى ببيان أحكام الصيام	10
المبحث الثالث: أهمية الصيام	16
المبحث الرابع: من دلالات الفعل المبني للمجهول	22
المبحث الخامس: من دلالات استواء ربنا تعالى	28
المبحث السادس: حكم الصيام	35
الفصل الثاني تفسير قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ ۚ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۗ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].	43
المبحث الأول: العلاقة بين الصيام والجهاد	43
المبحث الثاني: رسالة التيسير	48
المبحث الثالث: المشقة تجلب التيسير	54
المبحث الرابع: أهل الأعذار	60
المبحث الخامس: فضل الصيام	66
المبحث السادس: من أحكام الصيام	72
المبحث السابع: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾	78
المبحث الثامن: أحكام عمل أهل الأعذار يوم القضاء	83

87	المبحث التاسع: للصائم فرحتان
89	المبحث العاشر: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
94	المبحث الحادي عشر: مسألة النسخ
96	الفصل الثالث في تفسير قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
96	المبحث الأول: احتفاء القرآن بشهر رمضان
105	المبحث الثاني: اختصاص تنزل القرآن في شهر رمضان
116	المبحث الثالث: ما العلاقة بين الاحتفاء برمضان والاحتفال بالموالد؟!
123	المبحث الرابع: (هدى للناس)!
129	المبحث الخامس: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾
131	المبحث السادس : قطوف البيان من بلاغة القرآن
138	المبحث السابع: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
143	الفصل الرابع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]
143	المبحث الأول: بين يدي الآية
146	المبحث الثاني: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾
148	المبحث الثالث: فضل الأزمنة والأماكن الفاضلة
152	المبحث الرابع: ما حكمة الحث على الدعاء بين آيات الصيام؟!
157	المبحث الخامس: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾
162	المبحث السادس: أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصما ولا غائبا.
166	المبحث السابع: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾
173	المبحث الثامن: من موانع إجابة الدعاء
180	الفصل الخامس

180	المبحث الأول: لطائف النشر في فضل الليالي العشر
187	المبحث الثاني: لطائف النشر في فضل الليالي العشر
194	الفصل السادس تفسير قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۚ عَلَّمَ اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۚ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾
194	المبحث الأول: الشخصية الاعتبارية للآية الكريمة
198	المبحث الثاني: سبب النزول
203	المبحث الثالث: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾
207	المبحث الرابع: نبينا ﷺ يسكن إلى أزواجه
210	المبحث الخامس: ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾
214	المبحث السادس: بين المراقبة والإحسان
215	المبحث السابع: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾
220	المبحث الثامن: الإطناب وأثره في بلاغة القرآن الكريم
222	المبحث التاسع: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾
226	المبحث العاشر: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾
230	المبحث الحادي عشر: المقصود بالخيط الأبيض والخيط الأسود
233	المبحث الثاني عشر: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾
236	المبحث الثالث عشر: مشروعية الاعتكاف
238	المبحث الرابع عشر: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾
241	مصادر البحث
242	الفهرس